

قصص قصيرة

الحياة ⁹⁹ عامم وخوف

جوزيف كونراد

أيمي فوستر
شباب
ذكرى كارين

ترجمة: ميادة خليل



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

الحياة حلمٌ وخوف

جوزيف كونراد

أيمي فوستر

شباب

ذكرى كارين

عزبتها عن الإنكليزية: ميادة خليل

أيمي فوستر

العنوان الأصلي: Amy Foster

المصدر الأصلي: Dodo Press

شباب

العنوان الأصلي: Youth

المصدر الأصلي: Penguin Group

ذكرى كارين

العنوان الأصلي: Karain, A Memory

المصدر الأصلي: Tals of Unrest (BiblioBazaar)

أيمي فوستر

كنيدي طبيب القرية، ويعيش في كولبروك الواقعة على شواطئ أيستباي؛ الأرض المرتفعة يتزايد ارتفاعها بشكل غير متوقع خلف السطوح الحمراء للبلدة الصغيرة وصولاً إلى الشارع الرئيس العتيق قبالة الحاجز الذي يحميها من البحر. وما وراء الحاجز البحري هناك منعطفات تمتد لأميال بشكل واسع ومنتظم على طول ساحل قاحل من الحصى، وعند قرية برينزت يبرز على نحو مظلم من الجانب الآخر للماء، قمة مستدقة بين مجموعة من الأشجار، وإلى مسافة أبعد من برج متعامد لمنازة يبدو من بعيد ليس أكبر من قلم رصاص، يحدد نقطة التلاشي على اليابسة. القرية خلف برينزت منخفضة ومستوية، لكن الخليج محمي إلى حد ما من البحار، وفي حالة إبحار سفينة كبيرة أو ربح مفاجئة أو بسبب الضغط الجوي يتم الاستفادة من مرساة أرضية على بعد ميل ونصف باتجاه الشمال إذا كنت تقف عند الباب الخلفي لخان «شپ إن» في برينزت. وعلى مقربة طاحونة هواء متهالكة ترفع أذرعتها المحطمة من عند رابية ليست أعلى من كومة قمامة، وبرج مارتيلو يجثم عند حافة المياه على مسافة نصف ميل إلى الجنوب من أكواخ خفر السواحل المعروفة لربان الزوارق الصغيرة. هذه هي علامات الملاحة الرسمية لمساحة أرض منخفضة آمنة ممثلة في الخرائط الأميرالية على شكل بيضوي غير منتظم من النقاط تطوق ما يشبه رقم ستة، مع مرساة صغيرة حُفرت بينها، بالإضافة إلى العنوان الإيضاحي: «الطين والمحار».

تفوق حافة المرتفعات في ارتفاعها البرج المربع لكنيسة كولبروك، والمنحدر أخضر ويلتف مثل أنشودة عند طريق ترابي. وصعوداً على طول هذا الطريق ينكشف لك واد فسيح وضحل؛ منخفض واسع أخضر من العشب وسياج من الشجيرات تتشابك نحو الداخل في صورة من ظلال بنفسجية وخطوط متدفقة تغلف المنظر.

في هذا الوادي نزولاً إلى برينزت وكولبروك وصعوداً إلى دارنفورد، وعلى بعد أربعة عشر ميلاً من سوق المدينة تقع عيادة صديقي كنيدي الذي بدأ حياته طبيباً جراحاً في البحرية، وأصبح فيما بعد رفيقاً لرحال شهير، في تلك الأيام حيث ثمة قارات لم تستكشف مناطقها الداخلية بعد. كما أن مقالاته عن الحيوانات والنباتات جعلته معروفاً في المجتمعات العلمية. والآن جاء إلى عيادة القرية بمحض اختياره. فالقدرة الخارقة لعقله التي تعمل مثل سائل مدمر، دمرت طموحه كما أظن؛ إذ إن نكاهه من طراز علمي، وذا طبيعة بحثية، هو من ذلك الفضول الذي لا يمكن إشباعه والذي يؤمن بأن هناك جزءاً من حقيقة عامة في كل لغز.

عند عودتي من الخارج منذ سنوات طويلة جداً، دعاني للإقامة معه. جئت إليه بسرعة، وإذا لم يتمكن من إهمال مرضاه ليكون برفقتي، يأخذني أحياناً معه في جولاته لقطع نحو

ثلاثين ميلاً في وقت ما بعد الظهر. إذ أنتظره في الطرقات؛ يحاول الحصان بلوغ الأغصان المورقة، وأنا أجلس في العربة، وكان يمكنني سماع ضحكة كنيدي من الباب الذي ترك نصف مفتوح لبعض الأكواخ؛ فضحكته عميقة رائعة ملائمة لرجل بضعف حجمه، وهو رجل مفعم بالحيوية، مع وجه برونزي، وعينان رماديتان يقظتان للغاية. كما أن لديه مهارة جعل الناس يتحدثون معه بحرية، وصبراً غير محدود في الاستماع إلى قصصهم.

في أحد الأيام، وأثناء عدونا ركوباً على حصانينا من قرية كبيرة إلى مكان ظليل على الطريق، رأيت على جانبنا الأيسر كوخاً منخفضاً أسود، مع ألواح زجاجية معشقة في النوافذ، ويعتري على حافة الجدار سقف من الخشب، وتتسلق بعض الزهور على التعريشة المتداعية للشرفة الصغيرة. توقف كنيدي عن السير. وهناك كانت امرأة تنشر بطانية مبللة على جبل بين شجرتي تفاح كبيرتين تحت الشمس. وعندما حاول جذب رأس الحصان؛ الكستنائي ذا العنق الطويلة، هزّ يده اليسرى التي يغطيها قفاز جلدي سميك مصنوع من جلد الكلب، ورفع الطبيب صوته من فوق السياج: «كيف حال ابنك، أيمي؟»

كان لدي الوقت لأرى وجهها البليد الأحمر؛ ليس بحمرة الخجل لكن كما لو أن خديها المسطحين صُفعا بقوة ليتخذا شكلاً مكتنزاً، وشعرها البني المغبر الهزيل مشدود في عقدة محكمة خلف رأسها. تبدو شابة صغيرة. ومع توقف مؤقت متميز في تنفسها، بدا صوتها خافتاً وخجولاً.

- «هو بخير، شكراً لك».

وعدونا مسرعين مرة أخرى. «مريضتك الشابة» قلت له. ربت الطبيب على الحصان الكستنائي برفق وتمتم وهو شارد الذهن: «زوجها بالأحرى».

«يبدو أنها مخلوقة بليدة» أبدت رأيي بفتور.

«بالضبط» قال كنيدي. «إنها سلبية جداً. يكفي أن تنظر إلى الكفين الحمرابين المعلقين في نهايتي تلك الذراعين القصيرتين، وإلى تلك العينين البنيتين البارزتين البليدتين، لتعرف خمول عقلها، حتى يظن المرء أن هذا الخمول جعل عقلها آمناً دائماً من كل مفاجآت الخيال. وفي النهاية من ممّا آمن؟ على أية حال، مثلما رأيتها؛ لديها خيال كافٍ لتقع في الحب. إنها إحدى بنات إيزاك فوستر الذي انشغل برعي الماشية بعد أن كان مزارعاً صغيراً، وتعود بداية مصائبه إلى هروبه مع طباحة أبيه الأرمل الثري وتاجر الماشية سريع الغضب، الذي شطب اسمه بانفعال من وصيته، وسمع بأنه قد أطلق عبارات تهدد حياته. إذ إن تلك الحادثة القديمة، مخزية بما يكفي لتتسبب في مأساة يونانية، نظراً للتشابه بين شخصياتها. فهناك مأسى أخرى أقل خزيًا، وذات مرارة غير ملحوظة، تبرز من خلال خلاقات لا يمكن حلها ومن خلال ذلك الخوف من المجهول الذي يخيم على عقولنا جميعاً، على عقولنا جميعاً...».

توقف الحصان المتعب عن السير، وحافة الشمس الحمراء تماماً في سماء صافية، لامست بحميمية القمة الملساء لهضبة محروثة بالقرب من الطريق مثلما رأيتها لمرات لا تعد ولا تحصى تلمس الأفق البعيد للبحر. والسمرة المتماثلة للأرض المحروثة توهجت مع مسحة وردية، كما لو أن التلال الترايبية المغبرة تعرقت في دقيقة لؤلؤاً من دم جهد عدد لا يحصى من الفلاحين. وعند أطراف الغابة تسير عربة بحصانين بلطف على طول سلسلة من التلال؛ إذ تبرز أعلى رأسينا على الأفق، وتلوح أمام الشمس الحمراء بزهو كبير، هائلة مثل عربة عملاقة يسحبها بخطوات بطيئة اثنان من الجياد ذا أحجام أسطورية. والمظهر الأخرق للرجل يتهدى عند رأس الحصان القائد ويعرض نفسه على خلفية لامتناهية مع فظاظة بطولية. اهتز طرف سوط سائق العربة عالياً في السماء. وبدأ كنيدي الحديث.

«إنها الابنة البكر لعائلة كبيرة. وفي سن الخامسة عشرة أخرجوها للخدمة في مزرعة نيو بارنس. وأثناء زيارة للسيدة سميث، زوجة المستأجر، رأيت تلك الفتاة هناك للمرة الأولى. السيدة سميث شخصية متميزة مع أنف حاد، كانت تجبرها على ارتداء ثوب أسود كل يوم في وقت ما بعد الظهر. ولا أعرف ما الذي جعلني ألاحظها على أية حال. إذ إن هناك وجوهاً تثير فيك الفضول لنقص غريب واضح في ملامحها؛ مثلما تمشي في الضباب وتُحدق بانتباه إلى شكل غير واضح قد يكون بعد كل شيء ليس أكثر غرابة أو غموضاً من لافتة. والخصوصية الوحيدة التي لمستها فيها هي اللثغة الطفيفة في نطقها؛ نوع من التلعثم عند بدئها الكلام يزول مع نطق أول كلمة. وعندما تتحدث بحدة، تكون عرضة للارتباك على الفور، لكن قلبها أكثر رحمة. إذ لم يُسمع منها قط كلام تُعبر فيه عن كراهية لأي إنسان، وهي رقيقة مع كل كائن حي. ومخلصة للسيدة سميث وللسيد سميث، ولكلابهما، وقططهما، وطيور الكناري، ولبغاء السيدة سميث الرمادي الذي سحرها بمميزاته على نحو واضح. ورغم ذلك، عندما يهاجم القط ذلك الطائر الغريب، يصرخ طلباً للمساعدة بلهجة البشر، فتخرج أيمي راكضة إلى الفناء وتسد أذنيها ولا تمنع الجريمة. وبالنسبة للسيدة سميث يعد هذا دليل آخر على غباؤها، ومن جانب آخر، نقص جمالها وجاذبيتها، نظراً للعبث الذي يُعرف به سميث، يُعد تزكية عظيمة لها. فعيناها قصيرتا النظر ستملؤهما الشفقة على فأر مسكين في مصيدة، ولقد شوهدت ذات مرة من قبل بعض الأولاد وهي تجلس على العشب الرطب على ركبتيها لتساعد ضفدعاً وقع في مأزق. وإذا كان ما قاله زميل ألماني من أن «لا تفكير دون فسفور» صحيحاً، فإن الأكثر صحة هو أن ليس هناك طيبة قلب دون قدر معين من الخيال. وأيمي لديها البعض منه. حتى إن لديها أكثر من اللازم لتفهم المعاناة وتحرك مشاعرنا الشفقة. إذ وقعت في الحب تحت ظروف لم تترك أي مجال للشك، لأنك تحتاج الخيال لتشكيل مفهوم تقريبي عن الجمال، وتظل تكتشف أكثر فأكثر مثلك الأعلى في شخصية غير مألوفة.

كيف جاءت هذه الموهبة، وعلى ماذا تتغذى؟ يبقى ذلك سراً غامضاً. فلقد ولدت في القرية، ولم تذهب إلى أبعد من كولبروك أو ربما دانفورد. وعاشت أربع سنوات مع عائلة سميث في نيو بارنس وهي مزرعة معزولة تبعد ميلاً عن الطريق، وكانت مرتاحة البال

وهي تنظر إلى الحقول نفسها يوماً بعد يوم؛ التجويفات، والمرتفعات، والأشجار والشجيرات، وإلى وجوه الرجال الأربعة حول المزرعة. الأشياء نفسها دائماً، يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، سنة بعد سنة. ولا تُظهر رغبة للحديث، فكما بدا لي، هي لا تعرف كيف تبتسم. وترتدي أحياناً في ما بعد ظهر يوم أحد رائع أفضل ثيابها، وزوج حذاء طويل سميك، وقبعة كبيرة رمادية مزينة بريشة سوداء (لقد رأيتها بهذه الأناقة)، وتمسك بعنق مظللة هزيلة، وتتسلق سلمتين لعبور الجدار، وتجتاز ثلاثة حقول وتمشي مسافة منتي ياردة من الطريق، وليس أبعد من ذلك. وهناك حيث كوخ فوستر، عليها مساعدة والدتها في تقديم الشاي إلى الأطفال الصغار، وغسل الأواني الفخارية، وتقبيل أصغرهم، ثم العودة إلى المزرعة. وذلك كل شيء؛ كل الراحة، كل التغيير، كل الاسترخاء. ولا يبدو أنها تمنى شيئاً أكثر من ذلك. وبعدها وَقعت في الحب؛ وَقعت في الحب بصمت، وعناد، وربما بلا إرادة. إذ جاءها ببطء، لكنه عندما جاء كان مثل سحر قوي، حياً كما يفهمه القدماء، رغبة مصيرية لا تقاوم، وتملكها! نعم، أصبحت مسكونة به وتملكها من خلال المظهر والحضور، وعلى نحو قاتل، كما لو أنها تتعبد وثناً تحت سماء صافية، إلى أن استيقظت أخيراً من ذلك النسيان الغامض للذات؛ من ذلك السحر، من تلك النشوة، نتيجة خوف يشبه زعر غير مفهوم من بهيمة...».

مع تدلي الشمس على حدودها الغربية، اتخذت المساحة الواسعة التي تحيط بالأراضي المعشبة في المنحدرات الوعرة للأرض المرتفعة مظهراً رائعاً وكثيباً. وشعور حزن حاد، مثل الذي تثيره مقطوعة موسيقية جادة، حرر نفسه من صمت الحقول. والرجال الذين التقينا بهم كانوا يسرون ببطء، ولا يبتسمون، وعيونهم مسبلة، كما لو أن حزن أرض مثقلة أرهقت أقدامهم، وأحنت أكتافهم، وقهرت نظراتهم.

«نعم» ردّ الطبيب على ملاحظتي، «قد يظن المرء أن الأرض تحت لعنة ما، منذ أن أصبح جميع أبنائها الأصليين؛ أولئك الذين تشبثوا بها، غير مألوفين لبعضهم ويمشون بتناقل كما لو أن قلوبهم محملة بالأغلال. لكن هنا في هذا الشارع نفسه قد ترى من بين هؤلاء الرجال الغلاظ رجلاً رشيقاً، مرناً، ذا أطراف طويلة، مستقيماً مثل خشب الصنوبر مع شيء من السعي نحو الأفضل في مظهره كما لو أن قلبه مفعم بالحياة. وربما الأمر ليس إلا تأثير قوة الاختلاف، لكن عندما كان يمر بأحد القرويين هنا، لم يكن يبدو لي أن نعل قدميه قد لامس غبار الشارع. إذ يقفز فوق المرقى، ويسير بخطى مرنة طويلة في تلك المنحدرات التي تجعله ملحوظاً من مسافة بعيدة، ولديه عينان برّاقتان سوداوان. إنه مختلف جداً عن البشر من حوله، ومع حريرته في الحركة، ونظرتة الناعمة المندehشة بعض الشيء، ولون بشرته الزيتوني ومشيته الرشيقية، أوحى لي إنسانيته بطبيعة إنسان الغاب. كما لو أنه جاء من هناك.»

أشار الطبيب بسوطه، ومن قمة المنحدر يمكن رؤية القمم المتموجة للأشجار في حديقة على جانب الطريق، وبدا مستوى البحر أقل بكثير بالنسبة لنا، مثل أرضية صرح هائل

مرصعة بحلقات من موجات داكنة، مع أثر التماعات ساكنة، تنتهي بحزام من المياه الشفافة عند سفح السماء. والضوء المغبش بسبب دخان باخرة أصبحت غير مرئية، خَفَت في الوضوح الشديد للأفق مثل بخار متكثف على مرآة، وتظهر قرب الشاطئ الأشرعة البيضاء للسفينة وهي تفصل نفسها ببطء من تحت الأغصان، وتطفو بعيداً عن أوراق الأشجار.

«الغارق في الخليج؟» سألته.

«نعم، كان منبوذاً مهاجراً فقيراً من وسط أوروبا في طريقه إلى أمريكا وانجرف إلى الشاطئ هنا في العاصفة. ولشخص مثله لا يعرف أي شيء عن العالم، تعد إنكلترا بالنسبة له بلاداً غير مكتشفة. لذا تطلب الأمر بعض الوقت قبل أن يتعلم اسمها، وكل ما أعرفه أنه قد توقع وجود حيوانات برية أو رجال متوحشين هنا، وعندما زحف في الظلام على جدار البحر، تدحرج إلى أسفل الجانب الآخر منه قرب السد، حيث تحققت معجزة أخرى في أنه لم يغرق. ولكنه قاوم على نحو غريزي مثل حيوان وقع في شبكة صيد، وتلك المقاومة العمياء ألفت به إلى أحد الحقول. إذ لا بد أنه كان أقوى بكثير مما يبدو عليه لصدوده دون أن يموت في مثل ذلك الصراع وضراوة محاولاته والكثير من الخوف. وفي وقت لاحق، قال لي بإنكليزيته الركيكة التي تشبه بغرابتها لغة طفل صغير، بأنه قد وضع ثقته بالله، وظن بأنه لم يعد موجوداً في هذا العالم. وفي الواقع - لعله يضيف - كيف عرف ذلك؟ فلقد خاض معارك مع المطر والعاصفة على أطرافه الأربعة، وزحف أخيراً بين بعض الأغنام المتجمعة تحت مكان محمي من الريح بالقرب من سياج من الشجيرات. فهربت الأغنام في كل اتجاه وهي تتغو في الظلام، ورحب بأول صوت مألوف سمعه على تلك الشواطئ. إذ يجب أن يكون قد سمع صوتين في ذلك الصباح. وهذا كل ما نعرفه عن ظروف نزوله على اليابسة، برغم أن وصوله لم يلاحظ بأية حال من الأحوال. لكن رفاقه المرّوعين لم يصلوا إلى الشاطئ إلا بعد مضي وقت طويل من ذلك اليوم...».

جمع الطبيب اللجام في يده، طقطق بلسانه، وهرول إلى أسفل التل. ثم استدار مباشرة بزاوية حادة إلى الطريق الرئيس، واهتزنا أثناء سيرنا فوق الأحجار ثم وصلنا إلى المنزل.

في وقت متأخر من الليل، كسر كنيدي فترة من كآبة انتابته، وعاد إلى القصة؛ يُدخن غليون، ويمشي بخطوات ثابتة في الغرفة الطويلة من أقصاها إلى أقصاها، ومصباح قراءة يُركز كل ضوئه فوق الأوراق على مكتبه. ورأيت وأنا أجلس عند النافذة المفتوحة، بعد يوم هادئ وحار جداً، روعة المياه الباردة للبحر الضبابي الذي يرقد ساكناً تحت القمر. ولا همس، ولا رذات، ولا حركة للحصى الصغيرة على الشاطئ، ولا صوت وقع أقدام، ولا تأوه يخرج من تحت الأرض، ولا علامة على الحياة إلا من رائحة الياسمين المتسلق وصوت كنيدي متحدثاً من ورائي، إذ يمر صوته عبر نافذة الباب الواسعة، ليتلاشى في الخارج في سكون بارد وبانخ.

«... حكايات السفن الغارقة في الزمن القديم تخبرنا عن الكثير من المعاناة. وفي كثير من الأحيان يتم إنقاذ ضحايا السفن المحطمة من الغرق ليموتوا ميتة بائسة من الجوع على ساحل قاحل، وآخرون يلاقون موتاً عنيفاً أو عبودية، ومعاناة سنوات من حياة غير مستقرة مع أناس تُعد غرابتهم بالنسبة لهم في محل شك أو كراهية أو خوف. إذ نقرأ عن هذه الأشياء وهي محزنة جداً. فمن الصعب على رجل أن يجد نفسه غريباً ضائعاً، وعاجزاً، وغير مفهوم، ومن أصل غير معروف، في زاوية مجهولة من العالم. ومن بين كل المغامرين الغرقى في كل البقاع المقفرة من العالم لا يوجد أحد، كما يبدو لي، قد عانى قط من مصير مأساوي كما الرجل الذي تحدثت عنه؛ أكثر المغامرين براءة يلقي به البحر في منعطف هذا الخليج، وتقريباً في مرمى النظر من هذه النافذة.

لم يكن يعرف اسم سفينته. واكتشفنا بالتأكيد مع مرور الوقت بأنه لم يكن يعرف حتى إن للسفن أسماء «مثل المسيحيين»، وعندما لمَحَ في أحد الأيام، من أعلى تل تالفورد، البحر الممتد مكشوفاً أمام نظره، دارت عيناه وضاع في وسط المفاجأة العنيفة، كما لو أنه لم يرَ أبداً مثل ذلك المشهد من قبل. وربما لا. فعلى قدر فهمي، كان قد أسرع مع كثيرين إلى متن سفينة للمهاجرين عند مصب الألب، حائر جداً حتى يلاحظ ما حوله، ومرهق جداً لرؤية أي شيء، وقلق جداً ليحذر. إذ اقتيدوا إلى الطوابق الداخلية من السفينة وأحكموا المداخل المؤدية إلى الجزء السفلي منها بالألواح الخشبية منذ البداية. وكان ماوى خشبياً وضيعاً، على حد قوله، مع عوارض خشبية في السقف، كمثل البيوت في بلدته، لكنك تدخل إليه عن طريق سلم ممتد إلى الأسفل. وكبير جداً، وبارد جداً، ورطب ومظلم، مع أماكن على غرار الصناديق الخشبية حيث ينام الناس واحداً فوق الآخر، والتي تهتز بكل اتجاه في وقت واحد، طوال الطريق وطوال الوقت. تسلل إلى أحد تلك الصناديق، وجثم هناك بملابسه التي ارتداها عند مغادرته منزله قبل عدة أيام، وأبقى صُرتَه وعصاه إلى جانبه. والناس كانوا يتأوهون، والأطفال يبكون، والماء يقطر، والأنوار تنطفأ، وجدران المكان تصرّ، وكل شيء يهتز حتى إن المرء لا يجرؤ على رفع رأسه في صندوقه الصغير. فقد التواصل مع رفيقه الوحيد (شاب من القرية نفسها، كما قال)، وضجيج الرياح استمر طوال الوقت في الخارج مع ضربات قوية: بووم! بووم! وقهره مرضٌ فظيع إلى الحد الذي جعله يهمل صلاته. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن للمرء أن يعرف ما إذا كان الوقت صباحاً أم مساءً. إذ يبدو دائماً أن الوقت ليلاً في ذلك المكان.

تنقل قبل ذلك ولفترة طويلة جداً على خطوط السكك الحديدية. وكان ينظر عبر النافذة إلى الخارج؛ زجاج النافذة نظيف بشكل رائع، والأشجار والبيوت والحقول والدروب الطويلة بدت كما لو أنها تحلق دائرياً وتدور حوله حتى أصيب بالدوار. فلقد جعلني أظن أنه التقى خلال رحلته البحرية بجموع لا تحصى من الناس، شعوب بأكملها، وجميعهم يرتدون ملابس تشبه ما يرتديه الأغنياء. وذات مرة خرج من العربة ونام طوال الليل على مقعد في بيت من الطابوق وصُرتَه تحت رأسه، وفي مرة جلس لساعات طويلة على أرضية من الحجارة المسطحة حتى غلبه النعاس، وهو يثني ركبتيه وصُرتَه بين قدميه، وثمة

سقف فوقه، بدا أنه قد صنع من الزجاج، وهو عال جداً حتى إن أطول شجرة صنوبر جبلية رآها في حياته لديها المجال كي تنمو تحته. وآلات بخارية تدخل في إحدى نهايتيه وتخرج من الأخرى. والناس يحتشدون أكثر مما يمكنك أن تراه في العيد حول الصورة المقدسة المعجزة في فناء الدير الكرملّي أسفل السهول حيث - قبل أن يترك منزله - أوصل والدته إلى هناك بعربة خشبية، وهي عجوز متدينة أرادت أن تصلي وتذّر من أجل سلامته. ولم يتمكن من منحي فكرة عن حجم المكان وفخامته وإن كان مليئاً بالضجيج والدخان والكآبة ورنين الحديد، لكن شخص ما أخبره أن ذلك المكان يسمى برلين. وبعدها قرعوا الجرس، ودخلت آلة بخارية أخرى، ومرة أخرى أقلته إلى أرض أرهقت عينيه برتابتها دون حتى أثر لتل قد يُرى في أي مكان. وقضى ليلة أخرى صامتاً في بناء بدا مثل زريبة يغطي أرضيتها ركام من القش، ويحمي صُرّته بين الكثير من الرجال الذين لا يفهمون كلمة واحدة مما يقوله. وفي الصباح يُقادون إلى أسفل الساحل الصخري لنهر طيني واسع جداً لا يجري بين التلال لكن بين البيوت التي بدت هائلة. وآلة بخارية تجري على سطح الماء، وجميعهم وقفوا فوقها مرصوصين، وحينها فقط انضم إليهم العديد من النساء والأطفال الذين تسببوا في الكثير من الضجيج. ومن ثم هطلت أمطار باردة؛ والرياح هبت على وجهه، تبلل من المطر، واصطكت أسنانه من البرد. وهو والشاب من قريته نفسها كانا يمسان يد بعضهما.

ظنوا بأنهم ذاهبون إلى أمريكا مباشرة، لكن الآلة البخارية اصطدمت فجأة بجانب شيء كأنه بيت على الماء، جدرانه ملساء وسوداء، وتتسلق هناك، أو تنمو من السقف إذا جاز التعبير، أشجار عارية على شكل صلبان، عالية جداً. هكذا بدت له حينها، لأنه لم ير سفينة من قبل؛ إنها السفينة التي ستبحر بهم على طول الطريق إلى أمريكا.

أصوات تصرخ، وكل شيء يتأرجح، وهناك سلم يسقط في المياه ثم يرتفع. إذ صعد على يديه وركبتيه مع خوف قاتل من السقوط في الماء الذي كان يتناثر بقوة. وافترق عن رفيقه، وعندما نزل إلى أسفل تلك السفينة بدا كما لو أن قلبه قد انصهر فجأة في داخله.

في ذلك الوقت أيضاً، كما قال لي، فقد التواصل إلى الأبد مع أحد أولئك الرجال الثلاثة الذين جابوا في صيف سابق كل المدن الصغيرة في سفوح بلدته. إذ وصلوا في أيام التسوق ودخلوا البلدة على عربة الفلاحين، وأقاموا مكتباً في أحد الخانات أو في بعض بيوت اليهود الأخرى. وهناك ثلاثة منهم؛ أحدهم لديه لحيه طويلة ويبدو مهيباً، يضعون ياقات من قماش أحمر حول أعناقهم وشريطاً ذهبياً على أكمامهم مثل المسؤولين الحكوميين. إذ جلسوا بفخر خلف طاولة طويلة في الغرفة المجاورة حتى لا يسمعهم العامة من الناس، وكانوا يحتفظون بآلة تلغراف يمكنهم بواسطتها التحدث مع حاكم أمريكا. والآباء ينتظرون عند الباب، لكن شباب الجبال يزدحمون حول الطاولة، ويسألون الكثير من الأسئلة؛ فيما إذا كان هناك عمل أجرته ثلاثة دولارات يومياً على مدار السنة في أمريكا، دون أداء الخدمة العسكرية.

لكن القيصر الأمريكي لن يقبل الجميع، آه، لا! هو نفسه واجه عقبات كبيرة ليحصل على القبول، والرجل الوقور في البذلة الرسمية كان عليه الخروج من الغرفة عدة مرات لتشغيل التلغراف نيابة عنه. وأخيراً منحه القيصر الأمريكي العمل مقابل ثلاثة دولارات، لكونه شاباً وقوياً. ورغم ذلك فإن الكثير من الشباب القادرين على العمل تراجعوا خوفاً من المسافة البعيدة. علاوة على ذلك، أولئك الذين يملكون بعض المال هم فقط من يتم قبلوهم. لذا باع البعض أكواخهم وأراضيهم لأن الذهاب إلى أمريكا يحتاج الكثير من المال، لكن ما إن تصل إلى هناك تحصل على ثلاثة دولارات في اليوم، وإذا كنت ذكياً ستعثر على أماكن حيث يمكن استخراج ذهب حقيقي من الأرض. إذ إن منزل أبيه كان مزدحماً؛ اثنان من أخوته متزوجين ولديهما أطفال، لذا وعد بإرسال المال إلى أهله من أمريكا عن طريق البريد مرتين في السنة. كما باع والده بقرة مسنة وزوجاً من مهور الجبال المبقعة التي رباها بنفسه، وقطعة أرض؛ جزء من مرعى جميل في منحدر مشمس من أشجار الصنوبر تخلق عنها إلى صاحب الخان اليهودي من أجل أن يدفعها لأصحاب السفينة الذين يأخذون الرجال إلى أمريكا ليصبحوا أغنياء في وقت قصير.

لا بد أن يكون لديه روح مغامر حقيقي، وذلك لكم المغامرات العظيمة في فتح مناطق غير مكتشفة على الأرض والتي كانت في البداية مجرد مساومة على بقرة العائلة مقابل الذهب الحقيقي أو الوهمي في مكان قصي! لقد تحدثت إليك من وجهة نظري الخاصة عن كل ما عرفته تقريباً على مدار سنتين أو ثلاث سنوات، وخلال تلك السنوات نادراً ما كنت أفوت فرصة المحادثة الودية معه. إذ أخبرني بهذه القصة من مغامرته مع الكثير من بريق أسنان بيضاء ونظرات مفعمة بالحياة من عينيه السوداوين، كمثل أحاديث الأطفال القلقة في البداية، وبعد ذلك، ورغم اكتسابه اللغة والتحدث بطلاقة كبيرة، ظل دائماً مع ذلك الغناء، والنعومة، وكذلك التنعيم المتذبذب الذي منح قوة تأثير غريبة لصوت معظم الكلمات الإنكليزية المألوفة، وبدت كما لو أنها كلمات لغة سماوية. ودائماً ما ينتهي، مع العديد من الهزات المؤكدة من رأسه، إلى ذلك الإحساس المرعب من انصهار قلبه في داخله مباشرة بعد أن وطئت قدماه متن تلك السفينة. وتنتابه بعد ذلك على ما يبدو فترة من الجهل التام، فيما يتعلق بالحقائق على أية حال. فلا شك بأنه قد أصيب بدوار بحر رهيب وكآبة رهيبة - ذلك المغامر اللطيف والعاطفي - أخرجتاه عن إدراكه، وشعور بالمرارة حين استلقى في سرير المهاجرين ذا الطابقين في السفينة مع عزلته التامة، لأنه ذو طبيعة حساسة للغاية. والشيء الآخر الذي نعرفه عنه على نحو مؤكد أنه قد اختبأ في زريبة هاموند للخنازير على جانب الطريق المؤدي إلى نورتون على مسافة ستة أميال من البحر في خط مستقيم. وكان لا يرغب في الحديث عن تلك التجارب، إذ يبدو أنها قد أحرقت في روحه نوعاً كثيراً من الدهشة والسخط. ومن خلال شائعات سكان الريف التي استمرت لعدة أيام بعد وصوله عرفنا أن صيادي ويست كولبروك قد انزعجوا ودُعروا من الضرب الكثيف على جدران الأكواخ الخشبية ومن صوت بكاء حاد مع كلمات غريبة في الليل. فخرج العديد منهم من أكواخهم، لكنه هرب بلا شك وهو في حالة ذعر مفاجئ عندما سمع نبرتهم الغاضبة الحادة وهم ينادون بعضهم في الظلام. إذ إن ما ساعده على صعود تل نورتون الوعر لا بد أن

يكون نوعاً من الهستيريا. وبلا شك، كان هو الذي رآه ناقل البضائع في برينزت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي (في حالة إغماء، يجب أن أقول) مستلقياً على العشب على جانب الطريق، لذا نزل من عربته ليلقي نظرة عن قرب لكنه انسحب، إذ أخافه سكونه التام وشيء غريب في مظهر ذلك المتشرد النائم دون حراك تحت زخات المطر. وفي اليوم التالي، جاء بعض الأطفال مهرولين خائفين إلى مدرسة في نورتن مما جعل المعلمات يخرجن ويتحدثن بغضب إلى «رجل بشع المظهر» في الطريق. تحرك عندئذ بعيداً بحذر، ونكس رأسه، ومشى بضع خطوات، وفجأة هرب بأقصى سرعة. وسائق عربة الحليب التي يملكها السيد برادلي لم يُخفِ أنه ضرب بسوطه بقوة رجل غجري كثير الشعر قفز عند منعطف الطريق عبر المخارج وأمسك بلجام المهر، أمسكه بقوة أيضاً، أمام وجهه مباشرة، كما قال، وهذا ما جعله يسقط على نحو مضحك في الوحل بشكل أسرع من قفزته، لكن ذلك حدث بعد أن سار نصف ميل بالضبط قبل أن يتمكن من إيقاف المهر. وربما كانت تلك هي محاولته اليائسة في الحصول على مساعدة، وحاجته إلى تواصل مع شخص ما، لذا حاول الشيطان المسكين إيقاف العربة. واعترف كذلك فيما بعد ثلاثة أولاد برميهم الحجارة على متشرد مضحك يتخبط في ممر ضيق بالقرب من قمين الجير وهو مبلل وملوث بالوحل وبدا أنه ثمل جداً. كل ذلك كان حديث ثلاث قرى لعدة أيام، لكن هناك شهادة السيدة فين الجديرة بالثقة (زوجة سائق عربة السيد سميث)، فلقد رأته يتسلق الجدار المنخفض لزريبة هاموند للخنازير ومشى مترنحاً مباشرة نحوها وهو يهذي بصوت عالٍ يكفي لجعل المرء يموت من الخوف. وكان معها طفل رضيع في عربة أطفال. فصرخت السيدة فين وهي تطلب منه الذهاب بعيداً، وعندما استمر في الاقتراب منها ضربته بشجاعة على رأسه بمظلتها ودون أن تلتفت خلفها ولو للحظة، ركضت مثل الريح مع عربتها حتى وصلت إلى أول وأقرب بيت في القرية، وتوقفت عنده وهي تلهث، وتحدثت إلى العجوز لويس الذي كان يطرق بالمطرقة على كومة من الأحجار؛ إذ نزع الرجل العجوز نظارته السوداء الهائلة ذات السلك الأسود، ونهض على ساقيه المرتعشتين ليرى عما تتحدث. ثم تتبع كل منهما بعينييه جسد الرجل وهو يركض في الحقل؛ رأياه يسقط، ثم يستجمع قوته، ويركض مجدداً، ويترنح ويلوح بيديه الطويلتين فوق رأسه، في اتجاه مزرعة نيو بارنس. فمن الواضح أنه منذ تلك اللحظة وهو في شراك مصيره الغامض والمؤثر. إذ ليس هناك شك بعد كل ما تعرض له، وكل ما هو مؤكد الآن: زعر السيدة سميث الشديد، وقناعة أيمي فوستر الراسخة التي طغت على الهجوم الانفعالي للآخرين، وأن الرجل «لا يقصد الإساءة». كما غضب سميث (عند عودته من سوق دارنفورد) لأنه وجد كلبه في نوبة نباح، والباب الخلفي مغلق، وزوجته في حالة هستيرية، وكل ذلك بسبب الصعلوك البائس القذر الذي من المفترض أن يكون حتى ذلك الحين مختبئاً في فناء المزرعة. كان هو؟ لذا قرر تلقيه درساً لتخويفه النساء.

عُرف سميث بمزاجه الغاضب، لكن رؤية مخلوق يُصعب وصفه وملوث بالوحل يجلس القرفصاء بين كومة من القش، ويتأرجح جيئةً وذهاباً مثل دب في قفص، جعله يتردد قليلاً. عندها وقف ذلك الصعلوك صامتاً قبالة؛ كتلة واحدة من الطين والقذارة من رأسه

حتى قدميه. شعر سميث، الذي يقف وحيداً وسط كومة القش خاصته مع ذلك الشبح في ظلمة يوم عاصف مع دويّ النباح الغاضب للكلب، برعب لا يمكن تفسيره. لكن عندئذ، فرق يديه السوداوين خصل شعره المتشابكة الطويلة المتدلية أمام وجهه، كما لو تُفَرَّق نصفي ستارة، ونظر في وجهه بعينين لامعتين واسعتين سوداء - بيضاء. أذهلته غرابة تلك المواجهة الصامتة تماماً. فلقد اعترف (لأن القصة ظلت موضوعاً منطقياً للحديث عنه هنا لسنوات) بأنه تراجع أكثر من خطوة إلى الوراء. وبعد ذلك، حدث انفجار غير متوقع من كلام سريع لا معنى له، أقنعه فوراً بأنه في مواجهة مع مجنون هارب. وفي الحقيقة فإن ذلك الانطباع لن يزول تماماً. إذ لم يتخلّ سميث عن قناعته التي يكتمها في قلبه حول الجنون الحقيقي للرجل حتى يومنا هذا.

عندما اقترب المخلوق منه وثرثر بطريقة مزعجة جداً، ظل سميث (الذي لم يكن مدركاً بأنه كان يخاطبه على أنه «سيد كريم»، وتوسل إليه باسم الرب أن يمنحه الطعام والماوي) يتحدث معه بحزم لكن بلطف، ويتراجع إلى الوراء طوال الوقت ياردة بعد أخرى. وأخيراً، تنبه إلى فرصته، وانقض عليه على حين غرة؛ دفعه بسرعة ودون تردد داخل كوخ خشبي، وفوراً أغلق الباب بالمزلاج. وعندئذ مسح جبينه رغم أن الطقس كان بارداً. فلقد أدى واجبه تجاه المجتمع بحجز مشرد وربما مجنون خطير. إلا أن سميث ليس بالرجل القاسي على الإطلاق، لكن لديه في عقله مجالاً لتلك الفكرة المجنونة. إذ لم يكن واسع الخيال بما يكفي ليسأل نفسه ما إذا كان الرجل سيهلك من البرد والجوع. وفي غضون ذلك تسبب المجنون بضوضاء كبيرة في الكوخ بادئ الأمر. والسيدة سميث ظلت تصرخ في الطابق العلوي، حيث حبست نفسها في غرفة نومها، لكن أيمي فوستر كانت تبكي شفقة عليه عند باب المطبخ، وتفرك يديها وتتمتم: «لا تفعل! لا تفعل!». أظن أن سميث قضى وقتاً عصيباً ذلك المساء مع ضجيج بعد آخر، وذلك المجنون الذي يبكي بعناد وبصوت مزعج يسمعه من خلال الباب زاد من غضبه. وربما لم يستطع أن يربط بين ذلك المجنون المزعج وقصة غرق السفينة في خليج إيستباي، حيث سرت شائعة عنها في سوق دارنפורد. وأحسب أن الرجل قد اقترب جداً من الجنون تلك الليلة. إذ قبل أن يفقد سيطرته ويفقد الوعي ألقى بنفسه هنا وهناك على نحو عنيف في الظلام، وتلوى على بعض الأكياس القذرة، وعض قبضتيه بغضب؛ من البرد، والجوع، والدهشة، واليأس.

كان متسلقاً لجبال السلسلة الشرقية من الكاربات، والسفينة التي غرقت في الليلة الماضية في خليج إيستباي هي سفينة المهاجرين الهامبورغية «هيرزوغين صوفيا دوروثيا»، وكلاهما من الذكريات المروعة.

قرأنا بعد أشهر قليلة في الصحف تقارير عن «وكالات الهجرة» الوهمية بين الفلاحين السلاقونيين في المحافظات النائية من النمسا. إذ كان هدف أولئك الأوغاد الحصول على مساكن الفقراء الجهلة بالاتفاق مع مرابين محليين. وصدّروا ضحاياهم عن طريق هامبورغ على الأغلب. أما السفينة، فإني رأيتها من خلال تلك النافذة؛ وصلت إلى الخليج وهي تسير

في اتجاه معاكس للريح مع أشرعتها القصيرة ما بعد ظهيرة معتمدة ومتوعدة. وصلت إلى المرساة بشكل صحيح حسب الخريطة، قبالة مركز برينزت لخفر السواحل. وأتذكر أنني قبل حلول الليل انتبهت مرة أخرى إلى حدود صواربها وحبال أشرعتها التي برزت في الظلام واتضح على خلفية غيوم قاتمة وممزقة، كمثل برج أصغر آخر إلى اليسار من برج كنيسة برينزت. وفي المساء ازدادت شدة الرياح. وفي منتصف الليل تمكنت وأنا راقد في فراشي من سماع أصوات العواصف الهائلة وأصوات الطوفان العنيف.

حينئذ ظن خفر السواحل أنهم قد رأوا أضواء السفينة على أرض المرسى. وفي لحظة اختفت، لكن من الواضح أن سفينة أخرى من النوع نفسه بحثت لها عن ملاذ في الخليج في

تلك الليلة المروعة العمياء، واصطدمت بوسط السفينة الألمانية (حرق، كما أخبرني أحد الغواصين بعد ذلك: «يمكنك أن تبهر بقارب التايمز¹ من خلاله»)، وعندئذ همدت السفينة، إما إن كانت سليمة أو متضررة، لا أحد يمكنه قول ذلك، لكنها همدت؛ مجهولة، وغير مرئية، ومشوهة، لتنهال على نحو غامض في عرض البحر. ولم يظهر أي شيء من السفينة على الإطلاق، وبعد تصاعد الاحتجاج الشعبي في كل أرجاء العالم كان يمكن العثور عليها لو كانت موجودة في أي مكان على سطح المياه.

انتهت القضية بلا أي دليل، وفي ظل صمت خفي كما لو أنها جريمة نُفذت بإتقان، وهو ما ميّز تلك الكارثة القاتلة، والتي كما قد تذكر، كانت ذا سمعة شنيعة. فالرياح حالت دون وصول الصيحات المدوية إلى الشاطئ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك وقت لإشارات استغاثة. مثل موت بلا أي نوع من الضجيج؛ سفينة هامبورغ التي تعبئت كلها في وقت واحد، انقلبت عندما غرقت وعند ضوء النهار لم يكن هناك حتى بقية لشراع يمكن رؤيته فوق سطح المياه. لقد فُقدت بالطبع، وفي البداية خمن خفر السواحل أن ما حدث هو إما أنها قد جرّت مرساتها أو انفصل حبل المرساة لبعض الوقت خلال الليل وخرجت إلى البحر. وبعد ذلك، عند تغيير المد والجزر تحرك الحطام قليلاً وتحجرت بعض الجثث، لأن طفلاً، أو طفلة صغيرة ذات شعر أشقر ترتدي فستاناً أحمر، وصلت جثتها إلى الشاطئ إلى جانب برج مارتيلو. وعند بعد الظهر كان يمكنك أن ترى على طول ثلاثة أميال من الساحل أجساداً داكنة مع سيقان عارية ومحطمة تظهر وتختفي مع تقدم وتراجع الزبد، ورجالاً مع مظهر بائس، ونساءً مع وجوه متخشبة، وأطفالاً غالباً بشعر أشقر، تم حملهم جثثاً تنزف على نقالات، وعلى نسيج من القصب، وعلى سالالم، في موكب طويل ماراً بباب خان «شيب إن» ليوضعوا في صف تحت الجدار الشمالي لكنيسة برينزت.

رسمياً، جثة الفتاة الصغيرة بالثوب الأحمر هي أول شيء وصل إلى الشاطئ من تلك السفينة. لكن لدي مرضى من البحارة من سكان غرب كولبروك، بلغوني بشكل غير رسمي أن في وقت مبكر جداً من صباح ذلك اليوم نزل أخوان للبحث بين الحجر على الشاطئ

ووجدنا، على مسافة من برينزت، قن دجاج عادياً من السفينة على مكان مرتفع وجاف من الشاطئ وفي داخله إحدى عشرة بطة غارقة. أكلت عائلتيهما البط، والقن قطعوه بفأس صغيرة واستخدموه حطباً. ومن المحتمل أن رجلاً (لنفترض أنه كان صدفة على سطح السفينة أثناء وقوع الحادثة) طفا إلى الشاطئ وهو على ذلك القن. ربما هو. أعترف أن هذا غير محتمل، لكن الرجل كان هناك ولأيام، لا بل ولأسابيع، إذ لم يدخل في عقولنا

أن بيننا الروح الحية الوحيدة الناجية من تلك الكارثة. والرجل نفسه، حتى عندما تعلم الكلام بشكل واضح، أخبرنا بالقليل جداً عما حدث. إذ تذكر بأنه قد شعر بتحسن (بعد أن رست السفينة، كما أظن) وأن الظلام والرياح والمطر حبست أنفاسه. يبدو الأمر كما لو أنه كان على سطح السفينة لبعض الوقت خلال تلك الليلة. لكن يجب أن لا ننسى أنه استعاد معرفته، وأنه قد أصيب بدوار البحر وظل عالقاً في الجحيم لأربعة أيام، ولم يكن لديه أي فكرة عامة عن السفينة أو عن البحر، ولهذا لم يكن لديه فكرة واضحة عما تعرض له. فلقد ميّز المطر، والرياح، والظلام، وفهم تغاء الأغنام، وتذكر ألم بؤسه وشقائه، ودهشة قلبه المحطم الذي لا يرى ولا يفهم، وفزعه عندما وجد كل الرجال غاضبين وكل النساء شرسات. إذ تقرب إليهم على أنه متسول، هذه هي الحقيقة، كما قال هو، لأن في قريته حتى لو لم يعطوا شيئاً كانوا يتحدثون بلطف إلى المتسولين. والأطفال في قريته لم يتعلموا رمي الحجارة على من يطلبون الرحمة. استراتيجية سميت قهرته تماماً. والكوخ الخشبي أظهر الجانب الفظيع لزنزانه. ومن ثم، ما الذي سيفعله له بعد ذلك؟ ليس من المستغرب أن أيمي فوستر ظهرت لعينيه مع هالة لملاك من نور. والفتاة لم تتمكن من النوم بسبب التفكير بالرجل المسكين، وفي الصباح، وقبل أن يستيقظ السيد سميث، تسلت إلى الفناء الخلفي. أبقّت باب الكوخ موارباً، ونظرت فيه ومدت يدها بنصف رغيف من الخبز الأبيض، «مثل الخبز الذي يأكله الأغنياء في قريتي» اعتاد أن يقول.

عند ذلك نهض ببطء من بين جميع أشكال القمامة، متيبساً، وجائعاً، ويرتجف، وبائساً، ومرتاباً. «هل يمكنك أن تأكل هذا؟» سألته بصوتها الناعم الخجول. فلا بد أنه قد نظر إليها على أنها «سيدة كريمة». التهم الرغيف بشراهة ودموعه تسقط على قشرة الخبز. فجأة ترك الخبز، وأمسك بمعصمها وطبع قبلة على يدها. لم تكن خائفة. وبعيداً عن حالته البائسة لاحظت أنه حسن المظهر. ثم أغلقت الباب وعادت تمشي ببطء مرة أخرى إلى المطبخ. وبعد وقت طويل أخبرت السيدة سميث التي ارتعبت من مجرد فكرة أن ذلك المخلوق قد لمسها.

من خلال ذلك الصنيع من الشفقة التلقائية، عاد ثانية إلى داخل العلاقات الإنسانية الباهتة مع محيطه الجديد. لن ينسى ذلك أبداً، أبداً.

في صباح ذلك اليوم جاء السيد سوافر العجوز (الجار الأقرب للسيد سميث) ليقدم نصيحته، وقرر أخذه معه. كان يقف غير مستقر على ساقيه، خانعاً، ويكسوه طين نصف

جاف، بينما يتحدث رجلان عنه بلغة غير مفهومة. ورفضت السيدة سميث النزول إلى الطابق السفلي حتى ابتعد المجنون عن المبنى، وأيمي فوستر، بعيداً من داخل المطبخ المظلم، راقبت من الباب الخلفي المفتوح، وهو يمثل إلى الإشارات التي توجه إليه قدر استطاعته، لكن سميث سيئ الظن تماماً. «انتبه، سيدي! قد يكون كل هذا مكر منه» صرخ عدة مرات بنبرة تحذير. وعندما انطلق فرس السيد سوافر، كان البائس يجلس إلى جانبه بتواضع، وضعف، حتى كاد يسقط عن ظهر العربة ذات العجلتين العاليتين.

أخذه سوافر مباشرة إلى منزله. وعندها دخلت أنا إلى المشهد.

تم استدعائي بطريقة بسيطة من قبل الرجل العجوز حيث أوما إليّ بسبابته من فوق بوابة منزله عندما حدثت وكنت أقود عربتي ماراً به. ونزلت إليه بالتأكيد.

«لدي شيء هنا» قال بصوت غير واضح، وقادني إلى مبنى خارجي على مسافة ليست بعيدة عن المباني الأخرى في مزرعته.

وهناك رأيته لأول مرة، في غرفة منخفضة الجدران طويلة تشغل مساحة من ما يشبه مبنى لتخزين العربات؛ المكان فارغ ومصبوغ باللون الأبيض، وفتحة مربعة صغيرة مع لوح زجاجي واحد مكسور ومغبر في نهايته البعيدة. كان مستلقياً على ظهره فوق بالة القش؛ أعطوه زوجاً من بطانيات الحُصن، ويبدو أنه قد صرف الباقي من قوته في جهد تنظيف نفسه. صامت تقريباً، وتنفسه السريع تحت البطانية التي سحبها إلى ذقنه، وعيناه اللامعتان السوداوان القلقتان ذكراني بطير بري وقع في فخ. وبينما أنا أفحصه، يقف العجوز سوافر بهدوء عند الباب، ويمرر أطراف أصابعه بمحاذاة شفته العليا الحليقة. ثم قدمت بعض التوجيهات ووعدت بإرسال قنينة من الدواء، واستفسرت عن بعض الأشياء بطبيعة الحال.

«قبض عليه سميث في فناء المزرعة عند نيو بارنز» قال الرجل العجوز بأسلوبه المتأنى الهادئ، وكما لو أن الآخر كان في الواقع نوعاً من الحيوانات البرية. «هكذا حصلت عليه. شيء غريب تماماً، أليس كذلك؟ الآن أخبرني دكتور، لقد كنت في جميع أنحاء العالم، ألا تظن بأنه واحد من الهندوس الذين جننا بهم إلى هنا».

فوجئت كثيراً. فشعره الطويل الأسود المبعثر على وسادة القش يختلف عن اللون الزيتوني الشاحب لوجهه. وخطر لي بأنه قد يكون من الباسكيون². وليس من الضروري معرفة ما إذا كان يفهم الإسبانية، لكنني حاولت معه ببعض كلمات أعرفها، وكذلك ببعض الكلمات الفرنسية. إذ إن الأصوات التي همس بها والتقطتها بالصاق أذني على شفثيه حيرتني تماماً. وعند بعد ظهر ذلك اليوم جنن سيدات شاببات من ريكتور (إحداهن تقرأ غوته مع الاستعانة بالقاموس، والأخرى تتصارع مع دانتية منذ سنوات) لزيارة الأنسة سوافر، حاولن

معه بالألمانية والإيطالية وهن يقفن عند الباب. وتراجعن قليلاً لمجرد خوفهن من فيض الحديث العاطفي الذي جعله ينهض من فراش القش ويتوجه إليهن. إذ اعترفن أن الصوت لطيف، وناعم، وموسيقي، لكنه مذهل وعجيب بالمقارنة مع مظهره ربما، ويختلف تماماً عن أي شيء سمعه المرء من قبل. وتسلق أطفال القرية الركاب ليختلسوا النظر من خلال الفتحة المربعة الصغيرة. والجميع تساءل عما سوف يفعله السيد سوافر معه.

لقد ابقاه عنده ببساطه.

سوافر الذي سيطلق عليه غريب الأطوار لو لم يكن محل تقدير إلى حد كبير. وسيخبرونك أن السيد سوافر يجلس حتى وقت متأخر لحوالي الساعة العاشرة ليلاً ليقرأ الكتب، وسيخبرونك أيضاً بأنه يستطيع كتابة شيك مصرفي بمئتي باوند دون أن يفكر في ذلك مرتين. هو نفسه سيخبرك أن عائلة سوافر يملكون الأراضي بين هنا ودارنפורد لثلاثة قرون. وكان يجب أن يكون عمره خمسة وثمانين عاماً اليوم، لكنه لا يبدو أكبر سناً منذ أول مرة جئت إلى هنا. هو مربى أغنام شهير، يتاجر بالماشية على نطاق واسع. ويحضر أيام التسوق هنا وهناك ويقطع الأميال في كل حالات الطقس، ويقود عربته وهو يجلس محني الظهر على اللجام، وشعره الأشيب الرقيق يلتف على ياقة معطفه الدافئ، ودثار أخضر منقوش حول ساقيه. منح هدوء الشيخوخة الجدية لسلوكه. حليق الذقن، وشفثاه رقيقتان ودقيقتان، وثمة شيء صارم وملوكي في ملامحه يضيف سمو معين إلى شكل وجهه. وعُرف بسيره لأميال في المطر من أجل رؤية نوع جديد من الورد في حديقة شخص ما، أو ملفوف ضخم زرعه ساكن كوخ.

يحب أن يسمع قصة أو أن يرى شيئاً ما يُسمى «غريب». وربما غرابة ذلك الرجل أثرت على العجوز سوافر. وربما الأمر مجرد نزوة يُصعب تفسيرها. فكل ما أعرفه، أنه بعد انقضاء ثلاثة أسابيع فاجأني مشهد مجنون سميت وهو يحفر في حديقة مطبخ سوافر. إذ اكتشفوا أن بإمكانه استخدام المجرفة. وكان يحفر وهو حافي القدمين.

ينساب شعره الأسود على كتفيه. وأظن أن سوافر هو من أعطاه القميص القطني المخطط القديم، لكنه ما يزال يرتدي سراويل القماش البنية المحلية (التي غسلها عند الشاطئ) الملتصقة بالساقين مثل الجوارب تقريباً، ويربط السروال بحزام جلدي واسع مرصع ببعض الشارات النحاسية الصفراء، ولم يكن قد غامر بعد بالذهاب إلى داخل القرية. فالأرض التي ينظر إليها بدت له محمية بعناية، مثل الأراضي حول منزل مالك الأرض، وأذهله حجم عربات الخيول، والطرق الشبيهة بحدائق التنزه، ومظهر الناس، خاصة في أيام الآحاد، الذي يعكس البذخ. إذ تساءل ما الذي جعلهم قساة بتلك الطريقة وجعل أطفالهم وقحين بتلك الطريقة. كان يحصل على طعامه عند الباب الخلفي، ويحمله بكلتا يديه بعناية إلى المبنى الخارجي، ويجلس وحده على فراش القش خاصته، ويرسم علامة الصليب قبل أن يبدأ بتناول طعامه. وإلى جانب الفراش نفسه، يركع عند حلول الظلام المبكر في الأيام

القصيرة، ويقراً بصوت عالٍ الصلاة الربانية قبل أن ينام. وكلما رأى السيد سوافر ينحني بتبجيل من عند خصره، ثم يقف منتصباً بينما الرجل العجوز يتفقدته بصمت وأصابعه على شفته العليا. وينحني أيضاً للآنسة سوافر التي تقوم بتدبير المنزل ببساطة من أجل والدها؛ عريضة المنكبين، امرأة ضخمة البنية في الخامسة والأربعين، مع جيب ثوبها المليء بالمفاتيح وعيناها الرماديتين الحازمتين. هي كمثل الكنيسة، كما يقول الناس (بينما كان والدها أحد أمناء الكنيسة المعمدانية)، تضع صليباً صغيراً من الفولاذ في صدرتها. وترتدي ثياباً سوداء على نحو صارم، أثناء إحياء ذكرى أحد البرادليين الذين لا حصر لهم في الحي، إذ كانت الآنسة سوافر مخطوبة له منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً؛ فلاح شاب كُسرَت رقبتة في مطاردة عشية ليلة الزفاف. ولديها ملامح لامبالية لأصم، إذ نادراً ما تتحدث، وشفتها رقيقتان مثل شفتي والدها، وتثير الدهشة أحياناً بمط شفتيها التهكمي على نحو غريب.

هؤلاء هم الناس الذين يدين لهم بالولاء، ووحدة القاهرة بدت كما لو أنها سقطت من السماء الداكنة لذلك الشتاء الكئيب. وكل الوجوه بدت حزينة له. ولم يكن بإمكانه الحديث مع أي أحد، وليس لديه أمل في فهم أي شخص. كما لو أن تلك الوجوه لأناس من عالم آخر، أناس موتى، إذ اعتاد أن يقول لي هذا لسنوات بعد ذلك. استغرب، كيف لم يصبح مجنوناً. لم يكن يعرف أين هو؛ كل ما يعرفه أنه في مكان ما بعيد جداً عن جباله، مكان ما على سطح الماء. هل كانت هذه أمريكا؟ تساءل.

لو لم ير الصليب الفولاذي على حزام الآنسة سوافر، كما اعترف لي، فلن يعرف ما إذا كان في بلدة مسيحية أم لا. إذ اعتاد أن يسترق النظرات إليه، ويشعر بالراحة. ولا شيء هنا يشبه ما كان في بلدته! الأرض والماء مختلفان، وليس هناك تماثيل للمخلص يسوع المسيح على جانب الطريق. والعشب كان مختلفاً تماماً، وكذلك الأشجار، كل الأشجار، عدا أشجار الصنوبر النرويجية القديمة الثلاث على مساحة من العشب الأخضر قبالة بيت سوافر، والتي تذكره ببلدته. إذ ضُبط ذات مرة، بعد حلول الظلام وجبينه على جذع إحدى الأشجار، يبكي، ويتحدث إلى نفسه إذ كانت تلك الأشجار بمثابة أخوة له في ذلك الوقت، كما أكد لي ذلك. وكل شيء عداها كان غريباً بالنسبة له. تخيل ذلك النوع من الوجود المظلل، والمرهق، والمظاهر المادية اليومية، كما لو أنها من رؤى كابوس. وفي الليل، حين لا يستطيع النوم، يظل يفكر بالفتاة التي أعطته أول قطعة خبز أكلها في هذه البلاد الغريبة. إذ لم تكن شرسة ولا غاضبة ولا خائفة. تذكر وجهها كما لو أنه الوجه الوحيد المفهوم من بين كل الوجوه المغلقة، والغامضة، والصامتة مثل وجوه الموتى الذين يملكون معرفة ما وراء فهم الأحياء. أتساءل فيما إذا تذكر شفقتها قد منعه من إيذاء نفسه. لكن! أفترض أنني رومانسي قديم ونسيت الحب الغريزي للحياة الذي يستولي على كل قوى اليأس غير العادي ليتغلب عليها.

قام بالعمل المطلوب منه بذلك فاجأ العجوز سوافر. واكتشف في وقت لاحق أنه يستطيع المساعدة في الحرث، وحلب الأبقار، وعلف الثيران في حظيرة المواشي، وبعض منه

يُستخدم للأغنام. وبدأ يلقط الكلمات أيضاً بسرعة كبيرة، وفجأة، في صباح أحد أيام الربيع الجميلة، أنقذ حفيدة العجوز سوافر من موت قبل أوانه.

بنت سوافر الصغرى متزوجة من ويلكوكس، وهو محام ومسؤول كبير في بلدية كولبروك، يأتيان مرتين في السنة بانتظام للإقامة لبضعة أيام مع الرجل العجوز. ابنتهم الوحيدة، بنت صغيرة لم تتجاوز الثالثة من العمر في ذلك الوقت، خرجت من البيت لوحدها بمئزرها الأبيض الصغير، تتهادى على عشب مدرجات الحديقة، وقذفت بنفسها من على قمة جدار منخفض إلى بركة الخيل في الحظيرة.

رَجَلْنَا كان في الخارج مع الحوزي والمحراث في الحقل بالقرب من المنزل، وبينما يقودهما للبدء في جولة حرث جديدة، رأى من خلال فجوة في البوابة ما قد يكون بالنسبة لأي شخص آخر مجرد رفرقة شيء أبيض. لكنه نظر مباشرة، وبسرعة، وبنظرة عينيه بعيدتي المدى؛ عينيه اللتين بدتا أنهما جفلتا وفقدتا قدرتهما المدهشة أمام اتساع البحر. كان حافياً، وبدا غريباً كما قد يحبذ قلب سوافر. ترك الخيول عند المنعطف، مع امتعاض الحوزي الذي يصعب تفسيره، وانصرف خلسة؛ تخطى الأرض المحروثة بقفزات طويلة، وفجأة ظهر أمام الأم، ودفع الطفلة إلى ذراعيها ومشى بعيداً بخطوات سريعة.

البركة لم تكن عميقة جداً، لكن مع ذلك؛ لو لم يكن لديه مثل ذلك البصر الجيد، لماتت الطفلة مختنقة على نحو بائس في القعر أو حتى بالطين اللزج في قعر البركة. لذا مشى العجوز سوافر ببطء نحو الحقل، وظل ينتظر حتى وصل المحراث إلى جانبه، فنظر إليه بلطف، ودون أن يقول كلمة واحدة عاد إلى المنزل. لكن منذ تلك الحادثة وهم يضعون طعامه على طاولة المطبخ، ولأول مرة، الأنسة سوافر التي يغطيها السواد مع وجه مبهم، تقترب وتقف في ممر غرفة المعيشة لتراه يرسم إشارة صليب كبير قبل أن يلتهم الطعام. وأظن أنه منذ ذلك اليوم أيضاً، بدأ سوافر يدفع له أجوراً عادية.

لا أستطيع مواكبة خطوات تقدمه خطوة بعد خطوة. فلقد قص شعره قصيراً، وكان يُرى في القرية على طول الطريق يمشي جيئةً وذهاباً إلى عمله مثل أي رجل آخر. وتوقف الأطفال عن الصراخ خلفه بسخرية. وأصبح مدركاً للاختلافات الاجتماعية، لكنه ظل لفترة طويلة متفاجئاً من الندرة الواضحة للكنائس مقابل الثروات الكثيرة في القرية. ولا يستطيع أن يفهم لماذا يُبقون على الكنائس مغلقة خلال أيام الأسبوع. إذ ليس هناك شيء للسرقة فيها. هل كان ذلك لمنع الناس من الصلاة قدر الإمكان؟ فلقد استلم بيت القسيس الكثير من الإشعارات منه في تلك الفترة، وأظن أن السيدات الشابات حاولن تمهيد الطريق لمحادثته. إذ لا يستطعن، على أية حال، منعه من عاداته صلب نفسه، لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك؛ بأن خلع سلسلة مع ميداليتين من النحاس بحجم ستة بنسات، وصليباً معدنياً صغيراً، ووشاحاً كتفياً مربعاً يضعه حول عنقه، وعلقها جميعاً على الحائط إلى جانب سريره، وظل يُسمع كل مساء وهو يتلو الصلاة الربانية بكلمات غير مفهومة وبنبرة بطيئة وحماسية كما

سمعها من والده العجوز وهو يرددتها على جميع أفراد العائلة الراكعين، صغيرهم وكبيرهم، في كل مساء من حياته. ورغم ارتدائه السروال القصير في عمله، كان يرتدي طقمًا لونه أسود وأبيض باهتاً وقديماً في يوم الأحد، والغرباء يستديرون نحوه لمراقبته في الطريق. إذ إن غريبته ذات طابع خاص وعميق. وأخيراً، اعتاد الناس على رؤيته. لكنهم لم يعتادوا عليه أبداً. إذ يمكن القول إن مشيته السريعة الخفيفة، وبشرته السمراء، وقبعته المطوية حافظتها اليسرى، وعادته في ارتداء معطفه على كتف واحد في الأمسيات الدافئة مثل دلمان الهوسار³، وطريقته في القفز على المراق، لا على أنها عمل بطولي في خفة الحركة، بل في المسار العادي لتتالي الأمور، كلها ميزات عرضته للسخرية والإساءة من قبل سكان القرية. فهم لا يريدون أن يستلقوا على العشب بسكون في وقت العشاء للتحديق في السماء. ولا يمشون ويصيحون في الحقول بألحان حزينة. فلقد سمعت في كثير من الأحيان صوته عالي النبرة من وراء سلسلة تلال مناطق المراعي المنحدرة؛ يرتفع وينخفض مثل صوت القبرة لكن مع شدو إنسان حزين، في كل مكان من حقولنا التي تسمع فيها فقط أغاني الطيور. أتذكر ذلك وأنا مندهش. أه! كان مختلفاً: بريء القلب، ومليئاً بالنوايا الحسنة التي لا يحتاجها أحد، ذلك المنبوذ الذي يشبه رجلاً عُرس في كوكب آخر، منفصلاً بفضاء هائل عن ماضيه وبجهل هائل عن مستقبله. وكلامه الحماسي السريع يصدم الجميع بشكل إيجابي؛ «شيطان سريع الانفعال» يسمونه. وفي إحدى الأمسيات، في خمارة «كوتج أند هورسس» (بعد أن شرب بعض الويسكي)، أزعجهم بغناء أغنية حب من بلده. فقاطعوه وسخروا منه، كان يتألم، لكن بريبل صانع العجلات الأعرج وفينسنت الحداد السمين وكذلك الوجهاء الآخرين أرادوا أن يشربوا بيرتهم بسلام. وفي مناسبة أخرى حاول أن يريهم كيف يرقص؛ تصاعد الغبار في سحب من الأرض المغطاة بالرمل، إذ قفز واقفاً بين الطاولات الموزعة في المكان، يضرب عقبه معاً، ثم يتقرفص على كعب واحد أمام العجوز بريبل ويمد الساق الأخرى، ويلهث على نحو جامح ويصرخ بغبطة، ثم يقفز ليدور على قدم واحدة، وينقر بأصابعه فوق رأسه. وبدأ سائق عربة غريب اعتاد احتساء شرابه هناك بالשתم، فانصرف بعيداً مع نصف لتر في يده في داخل البار. لكن عندما قفز فجأة على طاولة واستمر في الرقص بين الكؤوس، تدخل صاحب الخمارة. إذ لم يرغب بأي «خدع بهلوانية في الخمارة»، لذا أنزلوه. وبعد كأسين أو ثلاثة. حاول غريب سوافر الاعتراض، فطرد قسراً وأصيب بكدمة تحت عينه.

الهوسار: فرسان فوج السلاح الخفيف في الجيوش الأوروبية. (المترجمة)

أظن بأنه قد شعر بعداء محيطه البشري. لكنه كان قوياً، ذا روح قوية، فضلاً عن قوة جسده. إذ وحدها ذكريات البحر تخيفه، مع ذلك الرعب الغامض الذي تَبَقَى من حلم مزعج. بيته بعيد جداً ولا يريد الذهاب إلى أمريكا الآن. وكثيراً ما شرحت له أن ليس هناك مكان على الأرض يمكن العثور فيه على ذهب حقيقي في متناول اليد وما ستحصل عليه هو متاعب التنقيب عنه. ويتساءل، كيف إذن يستطيع العودة في يوم من الأيام إلى بلده بأيد

فارغة في حين بيعت بقرة ومهرين وقطعة أرض لدفع ثمن سفره؟ عندها تمتلئ عيناه بالدموع، ويحوّل نظره عن الوميض الهائل للبحر، ثم يلقي بنفسه منبطحاً على العشب. لكن أحياناً، يُعدل قبعته مع مسحة بسيطة من الانتصار، ويرفض سماع المزيد من معرفتي. لقد عثر على القليل من الذهب الحقيقي. وكان ذلك قلب أيمي فوستر؛ «قلب من ذهب، ولين مع بؤس الناس» يقول ذلك بنبرة قناعة غامرة.

يُدعى يانكو. وضح أن معناه جون الصغير، لكنه - كما كان يكرر كثيراً - متسلقاً للجبال أيضاً، وبعض الكلمات رنانة في لهجة بلدته مثل غورال⁴، والتي استعاضها عن لقبه. وهذا هو الأثر الوحيد له في سجل الزواج لدى الأبرشية حيث يمكن العثور عليه في الأزمان التالية. فهناك يندرج اسم: يانكو غورال في مخطوطة الكاهن. والصليب المعقوف صنعه المنبوذ بنفسه؛ الصليب الذي بدا له دون أدنى شك الجزء الأكثر رسمية في كل مراسم الزواج، هو كل ما تبقى الآن لتخليد ذكرى اسمه.

استمرت مغالته لبعض الوقت، منذ أن حصل على منزلته المتزعزعة في المجتمع. وبدأ ذلك بشرائه وشاحاً أخضر من الساتان لأيمي فوستر من دارنفورد. إذ هذا ما كنت ستفعله لو كنت في بلدته؛ تشتري وشاحاً من كشك يهودي في أيام الأعياد. ولا أظن أن الفتاة قد عرفت ما ستفعله بذلك الوشاح، لكنه افترض أن نواياه الشريفة لا يمكن أن تخطئ.

فقط عندما أعلن عن رغبته بالزواج فهمت تماماً كم، لمئة سبب عقيم وتافه، كم، ربما سأقول شيئاً بغيضاً؟ كم كان قروياً بالنسبة للجميع. إذ اعترضت كل امرأة عجوز في القرية بشدة على ذلك الزواج. وسميث صادفه قرب المزرعة، ووعده بكسر رقبتة إذا وجده هنا مرة أخرى. لكنه قتل شاربه الأسود القصير مع مسحة عدائية ودور تلك العينين السوداوين الشرستين نحو سميث في إشارة إلى أن وعده لن يتحقق. لكن سميث قال للفتاة بأنها لا بد أن تكون مجنونة لترتبط برجل غير طبيعي على نحو مؤكد. ورغم ذلك، عندما تسمعه

يُصفر مساءً من وراء الحقل لَحَيْنَ بنغمة حزينة وغريبة، ترمي أي شيء في يدها، وتترك السيدة سميث في منتصف كلامها وتمضي لندائه. فتصرخ السيدة سميث خلفها: فتاة وقحة. وهي لا ترد بكلمة؛ لا تقول أي شيء لأي أحد وتذهب في طريقها كما لو أنها صماء. هي وأنا فقط من بين الجميع في البلدة، كما أظن، تمكنا من رؤية جماله الحقيقي جداً. كان حسن المظهر، وأكثر جمالاً في تحمله، مع ذلك الشيء الوحشي في سلوكه مثل رجل الغابة. تشتكي أمها بحزن كلما جاءت الفتاة لرؤيتها في يوم عطلتها. والأب عابس، لكنه تظاهر بعدم معرفته، والسيدة حين قالت لها بصراحة ذات مرة: «هذا الرجل يا عزيزتي سيلحق بك الأذى يوماً ما» واستمر الحال على تلك الوتيرة. كان من الممكن رؤيتهما في الطرقات، وهي تنسكع بلا مبالة في ثوبها الرمادي الأنيق، وريشة سوداء، وجزمة سميكة، وقفازاتها القطنية البيضاء الشهيرة التي تأسر عينك من على بعد مئات الياردات. وهو يتدلى معطفه بشكل جذاب على إحدى كتفيه، ويخطو إلى جانبها، أنيق في طريقة مشيته، ويرمي

نظرات رقيقة إلى الفتاة ذات القلب الذهبي. وأتساءل إن كان قد رأى كم هي عادية. ربما تكون مختلفة جداً عن النماذج التي رآها في حياته، لذا لم يكن لديه القدرة على الحكم، أو ربما كان مفتوناً بالطبيعة الروحية لشفتها.

في غضون ذلك أصبح يانكو في ورطة كبيرة. ففي بلدته يفوض المرء رجلاً كبيراً في السن للقيام بشؤون الزواج. وهنا لا يعلم كيف يتم ذلك. على أية حال، ذات يوم في وسط الأغنام في الحقل (كان حينها تحت رعاية سوافر مع فوستر) نزع قبعته للأب وعرف نفسه بتواضع. «أحسب أنها مغفلة بما يكفي لتتزوجك» كان كل ما قاله فوستر. «وبعد ذلك»، اعتاد يانكو أن يروي ما حدث، «وضع قبعته على رأسه، ونظر بانزعاج إلي كما لو كان يريد أن يقطع عنقي، وصقر للكلب، وذهب، تركني ليقوم بعمله». عائلة فوستر، بالطبع، لا يحبون خسارة الأجور التي تحصل عليها الفتاة إذ اعتادت أيمي على أن تهب كل مالها إلى أمها. ولدى فوستر نفور حقيقي من ذلك الزواج. وزعم أن الرجل جيد جداً مع الأغنام، لكنه غير ملائم لأي فتاة للزواج. لسبب واحد: لأنه اعتاد المشي بمحاذاة سياج الشجيرات وهو يدندن مع نفسه مثل أحمق، وأيضاً، لأن أولئك الغرباء يتصرفون بطريقة مبتذلة مع النساء أحياناً. وربما يريد خطفها إلى مكان ما، أو ربما هرب هو نفسه من كان ما. عد ذلك أمراً خطيراً. لذا نصح ابنته بأن الرجل قد يسيء معاملتها بطريقة أو بأخرى. ولم ترد عليه. ومثلما قالوا في القرية: كما لو أن الرجل قد فعل شيئاً لها. إذ تجادل الناس حول الأمر. لأن الأمر مثير للغاية، وتابع الاثنان «السير معاً» في وجه المعارضين. وحصل بعد ذلك أمر غير متوقع.

لا أعلم ما إذا فهم العجوز سوافر كم أحترمه باعتباره أباً بالنسبة لخادمه الغريب. على أية حال، كانت العلاقة إقطاعية على نحو غريب. لذا عندما طلب يانكو بشكل رسمي مقابلة سوافر «والآنسة أيضاً» (يُسمى الآنسة سوافر الصماء القاسية ببساطة: آنسة) كان ذلك للحصول على إذن منهما بالزواج. سمعه سوافر بلا مبالاة، وأذن له بالانصراف بإيماءة، وصاح بعد ما سمعه في أذن الآنسة سوافر السليمة. لم تبد أية دهشة، وأبدت رأيها بتجهم، وبصوت واضح ومقنع: «بالتأكيد لن يحصل على أي فتاة أخرى ترضى بالزواج منه».

إنها الآنسة سوافر التي عرفت بالسخاء، لكن خلال أيام قليلة جداً اتضح أن السيد سوافر قدم ليانكو كوخاً (الكوخ الذي رأيت هذا الصباح) وقطعة من الأرض أو شيء من هذا القبيل، ومنحها له بعد ذلك ملكية مطلقة. ويلكوكس عجل في إتمام وثيقة الملكية، وأتذكر قوله لي بأنه شعر بسعادة غامرة أثناء تجهيزها. قال: «نظراً لإنقاذه حياة حفيدتي الحبيبة، بيرثا ويلكوكس».

بالتأكيد، فبعد ذلك لا يمكن لأي قوة على الأرض أن تمنع زواجهما.

استمر إعجابها الشديد به. والناس تراها تخرج لمقابلته في المساء. تحرق بعينين مفتونتين لا ترمشان في الطريق حيث من المتوقع أن يظهر هو؛ يمشي بحرية، ووركه يتمايل، ويدندن بأغنية من أغاني الحب المعروفة في بلاده. وعندما وُلد الصبي شرب حتى ثمل في خمارة «كوتج أند هورسس»، وحاول أن يغني مرة أخرى ويرقص، لكنهم طردوه مرة أخرى. لذا أعرب الناس عن مواساتهم للمرأة المتزوجة من ذلك «المهرج في صندوق سحري». وهو لم يعرهم أي اهتمام. إذ إن هناك رجلاً الآن (قال لي بفخر) يمكنه الغناء له والتحدث معه بلغة بلده، وكما سيُبين له كيفية الرقص قريباً.

لكني لا أعرف. بدت لي خطواته أقل مرونة من قبل، وجسده أثقل، وعيناه أقل حماساً. مجرد تصور بلا شك، لكن يبدو لي الآن كما لو أن شرك القدر كان قد اقترب منه بالفعل حينذاك.

التقيت به ذات يوم في ممشى على طول تالفورد هيل، وأخبرني أن: «النساء مضحكات»، فلقد سمعت سابقاً عن خلافات منزلية. والناس يقولون إن أيمي فوستر بدأت تكتشف أي نوع من الرجال تزوجت. كان ينظر إلى البحر بعينين غافلتين غير مباليتين. وفي أحد الأيام انتزعت زوجته الطفل من بين يديه عندما جلس على عتبة المنزل يدندن بأغنية تغنيها الأمهات لأطفالهن الرضع في جبال بلده. إذ ظنت أنه يؤذيه؛ النساء مضحكات. واعترضت على صلاته بصوت عالٍ في المساء، لماذا؟ تأمل أن يردد الطفل الصلاة بصوت عالٍ بعده في زمن قصير، كما اعتاد أن يردد بعد أبيه عندما كان طفلاً في بلده. واكتشفتُ توقه في أن يكبر طفله ليكون رجلاً يتحدث بتلك اللغة التي تبدو لآذاننا مزعجة جداً، وعاطفية جداً، وغريبة جداً. لماذا ترفض زوجته الفكرة؟ لم يستطع تفسير ذلك. لكن الأمر سينتهي، كما قال. وأمال رأسه متعمداً، ثم نقر على صدره ليبين أن قلبها طيب: ليست قاسية، ليست عنيفة، منفتحة على الشفقة، محسنة للفقراء.

مشيت بعيداً وأنا أفكر، تساءلت فيما إذا كان اختلافه وغرابته لم يخترقا بالإكراه طبيعتها المملة بدءاً بالانجذاب إلى بعضهما على نحو لا يقاوم. تساءلت...».

اقترب الطبيب من النافذة ونظر من خلالها إلى البحر المتجمد الرائع الهائل في الضباب، كما لو أنه طوّق كل الأرض بكل القلوب النائية بين مشاعر الحب والخوف.

«من الناحية الفسيولوجية، الآن» قال وهو يبتعد على نحو مفاجئ، «كان ذلك ممكناً، كان ذلك ممكناً».

ظل صامتاً. ثم واصل حديثه: «على العموم، في المرة التالية التي رأيتها فيها كان مريضاً؛ لديه مشكلة في الرئة. هو رجل قوي، لكن يمكنني القول إنه لم يتأقلم كما كنت أفترض. كان شتاءً سيئاً وبالتأكيد فإن متسلق الجبال يعاني من نوبات الحنين إلى الوطن وحالة من

الاكتئاب جعلته يائساً. وجدته مضطجعاً، يرتدي نصف ملابسه على أريكة في الطابق السفلي.

ثمة طاولة مغطاة بمشمع داكن اللون احتلت وسط الغرفة الصغيرة، ومهد من الخوص على الأرضية، وغلاية على الموقد تنفث البخار، وبعض ملابس الأطفال الكتانية وضعت على سياج المدفأة لتجفيفها. الغرفة دافئة، لكن الباب مفتوح على مصراعيه إلى الحديقة، كما لاحظت ربما.

كانت حرارته مرتفعة جداً، وظل يهتمهم مع نفسه. وأيمي تجلس على كرسي وتنظر إليه بثبات عبر الطاولة بعينيها البنيتين الضبابيتين. «لماذا لم تأخذه إلى الطابق العلوي؟» سألتها. بدأت بالتأتأة على نحو مضطرب ثم قالت: «أوه! آه! لم أتمكن من الجلوس معه في الطابق العلوي، سيدي».

قدمت لها بعض الإرشادات وخرجت، قلت لها مرة أخرى إن عليه أن يكون في فراشه في الطابق العلوي، فيما عصرت يديها، «لا أستطيع. لا أستطيع. يظل يتحدث بأشياء... لا أفهمها». ومع تذكر كل الكلام الذي قيل ضد الرجل والذي تردد بالحاح على مسامعها، نظرت إليها بعناية؛ نظرت إلى عينيها الحسيرتين، إلى عينيها البليدتين اللتين رأتا ذات مرة في حياتها شكلاً جذاباً، لكنها بدت وهي تحرق بي بأنها لا ترى أي شيء الآن على الإطلاق. إلا أنني لاحظت بأنها مرتبكة.

«ماذا حدث له؟» سألت مع مسحة من الذعر الأبله، «لا يبدو مريضاً جداً. لم أر أي أحد بهذه الحالة من قبل...».

«هل تظنين...» سألتها بسخط، «بأنه يتظاهر بالمرض؟».

«لا أعرف، سيدي» قالت علي نحو بليد. وفجأة ضربت كفيها ببعضهما ونظرت يميناً ويساراً. «وهناك طفل. أنا خائفة جداً. لقد تزوجني فقط لأمنحه الطفل. لا أستطيع أن أفهم ماذا يقول له».

«ألا يمكنك سؤال جارك أن يأتي هذه الليلة؟» سألتها.

«أرجوك سيدي، يبدو أن لا أحد يحرص على زيارتنا» همهمت مستسلمة فجأة كعادتها.

أكدت لها على ضرورة تقديم عناية أكبر إلى زوجها، وغادرت بعد ذلك. كان هناك الكثير من المرضى ذلك الشتاء. «أوه، أتمنى أن لا يتكلم!» صاحت برفق بمجرد أن ذهبت بعيداً.

لا أعلم كيف أني لم أفهم ما قالته، لكنني لم أفهمه. وبعد أن عدت إلى عربتي، رأيتها ثابتة أمام الباب، ساكنة جداً، كما لو أنها تتأمل سرباً من الطيور فوق طريق موحل.

ارتفعت درجة حرارته أثناء الليل.

ظل يتقلب في فراشه، ويتنهد، ويهمهم بشكوى بين الحين والآخر. وهي تجلس والطاولة بينها وبين الأريكة، تراقب كل حركة وكل صوت، بذعر، بذعر غير مُبرر من ذلك الرجل الذي تقدم نحوها ببطء. وسحبت مهد الخوص إلى قدميها. ليس ثمة شيء في داخلها غير غريزة الأمومة وذلك الخوف غير القابل للتفسير.

نهض فجأة، عطشاناً، وطلب شربة ماء. لم تتحرك. لم تفهمه، رغم اعتقاده ربما أنه كان يتحدث بالإنكليزية. انتظر، نظر إليها وهو يحترق من الحمى، مذهولاً من صمتها وجمودها، وعندئذ صرخ بلا صبر: «ماء! أعطيني ماء!».

قفزت على قدميها، انتزعت الطفل من مهده، ووقفت ساكنة. تكلم معها، واحتجاجه الانفعالي لم يزد إلا من خوفها من ذلك الرجل الغريب. أظن أنه قد تحدث إليها طويلاً، متوسلاً، مستغرباً، متضرعاً، أمراً، أفترض كل ذلك. قالت إنها تحملته قدر استطاعتها. وبعدها اجتاحتها عاصفة من الغضب.

جلس وصرخ بصعوبة بكلمة واحدة، أو بضع كلمات. ثم نهض كما لو أنه لم يكن مريضاً على الإطلاق، كما قالت أيمي. وكما يحدث عند الفرع المحموم، والسخط، والذهول من محاولته الاقتراب منها وهو يمشي حول الطاولة، فتحت الباب بكل بساطة وركضت إلى الخارج والطفل بين يديها. سمعته يصيح لمرتين بصوت فظيع بعد ذلك، ثم تلاشى صوته... أه! لكن عليك أن ترى التأثير خلف النظرة البليدة الضبابية لتلك العينين اللتين طاردهما شبح الخوف تلك الليلة لثلاثة أميال ونصف حتى باب كوخ فوسترا! عرفت كل ذلك في اليوم التالي.

وحدث أني أنا من وجدته مستلقياً؛ وجهه على الأرض وجسده في البركة، خارج البوابة الصغيرة.

كنت قد خرجت تلك الليلة لنداء من حالة عاجلة في القرية، وفي طريق عودتي إلى المنزل عند الفجر مررت بالكوخ الذي ترك بابه مفتوحاً. وساعدني رجل على حمله إلى الداخل، ثم وضعناه على الأريكة. كان الدخان يخرج من الفانوس المطفأ، وبرد الليلة العاصفة ينضح من ورق الجدران الأصفر الباهت. «أيمي!» صحت بصوت عالٍ، وحتى صوتي بدا ضائعاً في فراغ ذلك البيت الصغير كما لو أنني صرخت في صحراء. فتح عينيه، «ذهبت!» قال بشكل واضح. «طلبت منها ماءً فقط، فقط القليل من الماء...».

كان ملوثاً بالوحل. غطيته ووقفت أنتظر في صمت، ألتقط منه كلمة لهاث مؤلم بين الحين والآخر. لم تكن الكلمات بلغته بعد الآن. الحمى تركته، أخذة معها وهج الحياة. ومع لهاث صدره وعينيه اللامعتين ذكرني مرة أخرى بمخلوق متوحش واقع في الشَّرْك، أو بطير وقع في كمين. لقد تَرَكَته. لقد تَرَكَته، مريضاً، عاجزاً، عطشاناً. فلقد اخترق رمح الصياد روحه تماماً. «لماذا؟» صرخ بصوت حاد وساخط؛ كمثل صوت رجل يستنجد بقدرة الله. وأجابه نسيم الريح وحفيف المطر.

وعندما انصرفْتُ لأغلق الباب لفظ كلمة «الرحيم» ولفظ النفس الأخير.

في النهاية، وثقت أن السبب المباشر للوفاة هو فشل القلب. قلبه خذله بالتأكيد، وإلا بقي على قيد الحياة في تلك الليلة العاصفة والفاضحة، أيضاً. أغلقتُ عينيه وذهبت بعيداً. وليس بعيداً جداً عن الكوخ التقيت بفوستر يمشي بثبات بين الوشيع وكلبه الكولي الضخم في أعقابه.

«هل تعرف أين ابنتك؟» سألته.

«لا أعرف!» صرخ. «سأذهب لأتكلم معه قليلاً. كيف يخيف امرأة مسكينة بهذا الشكل.»

«لا يمكنه إخافتها بعد الآن» قلت له، «لقد مات.»

ضرب الطين بعصاه.

«وهناك طفل.»

بعد ذلك، وبعد تفكير عميق لبعض الوقت، قال: «لم أكن أعرف، إن كان هذا أفضل مما ظننت.»

هذا ما قاله. وهي لم تقل أي شيء إلى الآن مطلقاً. ولا كلمة عنه. أبداً. هل إن صورته قد ذهبت تماماً من ذهنها كما ذهب جسد ذلك الرجل الرشيق واسع الخطى، وصوته الكورالي من حقولنا؟ لم يعد أمام عينها لإثارة خيالها إلى عاطفة الحب أو الخوف، ويبدو أن ذكرياته قد انتهت في عقلها البليد مثل ظل مر بعيداً فوق ستار أبيض. إذ تعيش في الكوخ وتعمل لدى الأنسة سوافر. إنها أيمي فوستر بالنسبة للجميع، والطفل هو «ابن أيمي فوستر». سمتهُ جوئي، ومعناه جون الصغير.

من المستحيل القول إن كان هذا الاسم يعني أي شيء بالنسبة لها. هل فَكَّرت يوماً بالماضي؟ إذ رأيتها تخيم على سرير الطفل بعاطفة حنان الأمومة. والرجل الصغير مستلقياً على ظهره، خاف قليلاً مني، لكنه كان هادئاً جداً، مع عينيه السوداوين الكبيرتين، ومع

رفرفة كمثل طائر في كمين. وعندما نظرت إليه بدا لي أنني رأيت مرة أخرى شخصاً آخر:
الأب الذي نبذه البحر في ظروف غامضة ليموت بكارثة أشد خطورة من الوحدة واليأس».

شباب

يمكن أن يحدث ذلك في أي مكان عدا إنكلترا، حيث الرجال والبحر مرتبطان ببعضهما، إذا جاز التعبير، البحر جزء من حياة معظم الرجال، والرجال يعرفون شيئاً أو كل شيء عن البحر، كنوع من التسلية، أو لغرض السفر، أو لكسب لقمة العيش.

كنا نجلس حول مائدة ماهوجانية تعكس الزجاجاة وكؤوس الكلاريت ووجوهنا حين نتكى على أكواعنا؛ مدير الشركات والمحاسب والمحامي، ومارلو وأنا. المدير بحار كوني⁵، والمحاسب خدم في البحر لأربع سنوات. المحامي - عضو حزب المحافظين العنيد، الأنجليكاني، من أفضل الرجال، وهو تجسيد للشرف - كان موظفاً كبيراً في خدمة الملاحة والتجارة البحرية في الأيام الخوالي عندما كانت سفن البريد ذات الأشرعة المربعة على ساريتين على الأقل، واعتادت الرسو في بحر الصين قبل هبوب الرياح الموسمية المعتدلة مع مجموعة من الأشرعة الإضافية للرياح الخفيفة في الأسفل والأعلى. ولقد بدأنا حياتنا جميعاً في الخدمة التجارية. والرابطة القوية التي تجمعنا نحن الخمسة⁶ هي البحر، وأيضاً زمالة المهنة التي لا تقل أهمية عن الحماس لليخوت والرحلات البحرية وهلم جرا، لأن أحدها هي متعة الحياة فحسب والأخرى هي الحياة نفسها. مارلو (على الأقل هكذا يُتهجى اسمه كما أظن) روى القصة، أو بالأحرى وقائع الرحلة:

"نعم، لقد رأيت القليل من البحار الشرقية، لكن ما أتذكره جيداً هو رحلتي الأولى إلى هناك. أنتم تعلمون بأن هناك رحلات تبدو كما لو أنك كُلفت بها من أجل تفسير الحياة، وقد تُمثل رمزا للوجود. إذ إنك تتصارع، وتعمل، وتعرق، وتقتل نفسك تقريباً، وأحياناً تقتل نفسك بالفعل في محاولة لإنجاز شيء ما، ولا تنجح في ذلك. ليس بسبب أي خطأ منك. بل لأنك ببساطة لا تستطيع أن تفعل أي شيء، لا كبير ولا صغير - ولا أي شيء في هذا العالم - ولا حتى الزواج بخادمة عجوز، أو الحصول على حمولة 600 طن من الفحم رديء النوع وإيصالها إلى الميناء المقصود.

عموماً، إنها رحلة لا تنسى. رحلتي الأولى إلى الشرق، ورحلتي الأولى كمساعد ثان لربان السفينة، وأيضاً هي الواجب الأول الذي كُلفت به من قبل ربان السفينة. وقبلته لأن الوقت قد حان. كان عمره حينئذ ستين عاماً؛ رجل قصير، وظهره واسع وليس مستقيماً

هذه المجموعة التي وصفها كونراد هنا ظهرت في "قلب الظلام" وأفرادها في الأساس هم أصدقاء كونراد: ج. أف. دبليو. هوب (المدير)، دبليو. بي. كين (المحاسب). تي. ل. ميرس (المحامي). وچارلس مارلو شخصية ابتكرها المؤلف. (المتريجة)

تماماً، مع كتفين محنيين وإحدى ساقيه أكثر تقوساً من الأخرى، لديه ذلك الالتواء الغريب في مظهره والذي تراه غالباً لدى الرجال الذين يعملون في الحقول. ولديه وجه كسارة البندق⁷ - ذقن وأنف يحاولان الاقتراب من بعضهما فوق فم غائر - يؤطر وجهه شعر رمادي رقيق، يبدو مثل حزام قبعة من القطن الخام رُش بغبار الفحم. وعينان زرقاوان في ذلك الوجه العجوز الذي يشبه بشكل رائع وجه صبي، مع تلك الملامح الصريحة التي يحتفظ بها بعض الرجال العاديين جداً حتى نهاية حياتهم لأنهم يمتلكون هبة داخلية نادرة من بساطة القلب واستقامة النفس. ما حثه على قبولي هي المعجزة. إذ كنت خارجاً للتو من سفينة شرعية أسترالية سريعة، حيث كنت الربان الثالث فيها، وكان يبدو متحاملاً على السفن الشرعية السريعة كأرستقراطي ومدع. إذ قال لي: «كما تعلم، عليك أن تعمل في هذه السفينة...». قلت له إنني عملت في كل سفينة كنت فيها من قبل. «آه، لكن هنا الأمر مختلف، والسادة بعيدون عن سفنهم الكبيرة... لكن! أجرؤ على القول إنك ستفعل. انضم إلينا غداً».

انضمت لهم في اليوم التالي. حدث ذلك قبل اثنين وعشرين عاماً، وكان عمري عشرين عاماً. مضى زمن طويل! تلك الأيام من أسعد أيام حياتي، تخيلوا! مساعد ربان السفينة لأول مرة - ربان مسؤول حقاً! لم أكن أرغب في استبدال وظيفتي الجديدة حتى ولو في مقابل ثروة. نظر إليّ الزميل بحذر. وكان رجلاً مسناً أيضاً، لكن مع ملامح مختلفة؛ لديه أنف روماني، ولحية طويلة ناصعة البياض، واسمه ماهن، لكنه أصرّ على أن يُلفظ اسمه مان. وهو ذو علاقات واسعة، ومع ذلك هو قليل الحظ، ولم يترقّ أبداً.

كذلك القبطان، الذي عمل في التجارة الساحلية لسنوات، وبعد ذلك في البحر الأبيض المتوسط، وأخيراً في تجارة الهند الغربية. لم يصل قرب رأس الهورن أبداً. ويمكنه فقط رسم تخطيط بسيط، لكنه لا يهتم بالكتابة على الإطلاق. وكلاهما بحاران طيبان مجتهدان بكل تأكيد، وشعرت وأنا بين هذين العجوزين كما لو أنني طفل صغير بين جدين.

والسفينة قديمة أيضاً. اسمها يهودا. اسم غريب، أليس كذلك؟ يملكها رجل اسمه ويلمر، أو ويلكوكس، شيء من هذا القبيل، لكنه أعلن إفلاسه ومات من عشرين عاماً أو أكثر، ولا يهم اسمه. إذ تم خزنها في حوض شادويل للسفن لوقت طويل جداً. لذا يمكنك أن تتخيل حالتها؛ كلها صدأ، وغبار، وأوساخ، الأشرعة ملوثة بالسخام، وسطحها قذر. بدأ الأمر بالنسبة لي مثل الخروج من قلعة إلى كوخ متهدم. تزن حوالي 400 طن، ورافعتها بدائية، وأقفال أبوابها خشبية، ولا أي شيء من النحاس فيها، ومؤخرتها كبيرة ومربعة. وهناك، أسفل اسمها المكتوب بأحرف كبيرة، الكثير من الزخرفة مع طلاء ذهبي وما يشبه شعار

في نهاية القرن الخامس عشر كانت كسارة الجوز على شكل منحوتات خشبية لجنود، ملوك، وفرسان. (المترجمة)

النِّبالة، مع شعار «الحياة أو الموت» تحته. وأتذكر أنها قد سيطرت على خيالي للغاية. وثمة مسحة من الرومانسية فيها؛ شيء ما جعلني أحب ذلك الشيء القديم – شيء ما ناشد شبابي!

غادرنا لندن في سفينة خالية من البضائع ومفروش قاعها بالصابورة⁸ – صابورة رملية – لتحميل شحنة من الفحم إلى الميناء الشمالي لبانكوك؛ بانكوك! أرتعش عند سماع هذه الكلمة. فلقد أمضيت ست سنوات في البحر، ولم أر سوى ملبورن وسيدني، وأماكن رائعة، أماكن ساحرة – لكن بانكوك!

عملنا بنجاح في نهر التايمز تحت الأشرعة، مع مرشد الملاحة في بحر الشمال على متن السفينة. اسمه جيرمن، وكان يراوغ طوال اليوم ليهرب إلى مطبخ السفينة ويجفف منديله أمام الموقد. بدا أنه لا ينام أبداً. وهو رجل كئيب، مع دمعة ثابتة تلمع عند طرف أنفه، من الذين سواء وقعوا في ورطة، أو كانوا في ورطة، أو يتوقعون الوقوع في ورطة – لا يمكنهم أن يكونوا سعداء إلا إذا حدث خطأ ما. فلقد أربك مرحلة شبابي، وحسي السليم، ومهارتي في الملاحة البحرية، وحرص على إظهار ذلك بمئة طريقة بسيطة. وأجرؤ على قول إنه كان علي حق. إذ يبدو لي أنني كنت أعرف القليل جداً حينها، ولا أعرف الكثير الآن، لكني أضمر كرهاً لذلك الجيرمن حتى يومنا هذا.

عملنا لأسبوع حتى وصولنا يارموث رودز، وعندئذ واجهتنا عاصفة؛ عاصفة أكتوبر الشهيرة منذ اثنين وعشرين عاماً. وثمة رياح، وصواعق، ومطر متجمد، وثلوج، وبحر هائل. حلقتنا بسهولة، ولكم أن تتخيلوا مدى الضرر الذي لحق بنا حين أقول لكم إن جانب السفينة قد تحطم وسطح السفينة غمرته المياه. وفي الليلة التالية تحركت صابورتها إلى مقدمة السفينة المحمية من الريح، وحينئذ ارتفعت السفينة عالياً في مكان ما في دوجر بانك من بحر الشمال. ولم يكن بوسعنا أن نفعل إزاء ذلك سوى النزول مع المجارف ومحاولة تعديل مسارها، وهكذا نزلنا إلى ذلك المخزن الواسع للسفينة والكئيب مثل كهف، حيث الشحم الحيواني عند الأجزاء الغارقة يلتصق ويترجرج على عوارض السفينة، وعواء العاصفة يعلو، ثم انقلبت السفينة على جانبها بجنون. كنا جميعنا هناك: جيرمن، والقبطان،

والجميع، إذ استطعنا الوقوف على أقدامنا بصعوبة، منهمكين بأعمال الحفر، ومحاولة رمي حمولة المجرفة من الرمل الرطب في مهب الريح. ومع كل تقلب للسفينة يمكنك أن ترى بشكل غير واضح في ضوء خافت الرجال وهم يسقطون مع تلويحة كبيرة بالمجارف. وأحد عمال السفينة (لدينا اثنان) دُهل من غرابة المشهد، وبكى كما لو أن قلبه يتحطم. إذ يمكن سماع نحيبه في مكان ما في الظل.

خمدت العاصفة في اليوم الثالث، وسحبنا بعد ذلك زورق سحب بحرية شمال البلاد. فلقد قضينا ستة عشر يوماً في الإبحار من لندن إلى نهر التاين! وعند وصولنا إلى حوض السفن

فقدنا دورنا في التحميل، وسحبونا بعيداً إلى صف حيث بقينا هناك لمدة شهر. جاءت السيدة بيرد (بيرد هو اسم القبطان) من كولشستر لرؤية الرجل العجوز. إذ تعيش على ظهر السفينة. غادر طقم الملاحين، ولم يبق سوى ربانة السفينة، و خادم واحد، والمضيف، وهو خلاسي اسمه أبراهام. السيدة بيرد امرأة مسنة؛ وجهها متورد تملؤه التجاعيد مثل تفاحة الشتاء، وجسدها كجسد فتاة شابة. لمحتني ذات مرة وأنا أحيط زراً، وأصرت على أخذ قميصي لإصلاحه. وهذا كان شيئاً مختلفاً عما عرفته عن زوجات القباطنة على متن السفن الشراعية المتحطمة. وحين حملت لها القمصان، قالت: «والجوارب؟ إنها بحاجة إلى رتق، أنا متأكدة، حاجيات جون - القبطان بيرد - كلها مرتبة وسليمة الآن. يسعدني عمل أي شيء آخر». باركت السيدة العجوز. أصلحت لي ملابسني، وفي غضون ذلك قرأت لأول مرة كتاب توماس كارليل «سارتر ريسورتس» وكتاب بورنابي «رحلة إلى خيوة». لم أفهم كثيراً بادي الأمر، لكنني أتذكر بأني فضلت الجندي على البروفيسور في ذلك الوقت؛ تفضيل أكدته الحياة. إذ إن أحدهما رجل، والآخر كان إما أقل أو أكثر من ذلك. وعلى أية حال، كلاهما قد مات، والسيدة بيرد ماتت، والشباب، والقوة، والعبقرية، والأفكار والإنجازات، والقلوب البريئة - كلها ماتت... لا يهم.

حملونا البضاعة أخيراً. وركب السفينة الطاقم المكون من ثمانية بحارة بارعين وخادمين. سُحبنا جانباً ذات مساء نحو عوامات إرشاد السفن عند بوابات حوض السفن استعداداً للخروج، ومع إمكانية معقولة لبدء الرحلة في اليوم التالي. واستعدت السيدة بيرد للعودة إلى المنزل بالقطار الذي ينطلق في وقت متأخر. وحين استقرت السفينة ذهبنا لتناول الشاي. جلسنا صامتين أثناء تناولنا الطعام؛ ماهن، الزوجان العجوزان، وأنا. انتهيت من تناول طعامي قبل الجميع وتسلمت إلى الخارج لأدخن سيجارة، إذ إن حجرتي في سكن على متن السفينة مقابل مؤخر السفينة تماماً. كان منسوب المياه عالياً، وهبوب منعش للرياح مع رذاذ المطر، وبوابات حوض السفن مفتوحة، والسفن البخارية تدخل وتخرج في الظلام مع أنوارها المتقدة الساطعة، وتلاطم أمواج عالية عند المراوح، وضجيج الرافعات، والكثير من البَرَد على حاجز الأمواج. عندئذ شاهدت سلسلة من أضواء سارية السفينة تصعد وأضواء خضراء تنزل في الظلمة، وأومض بسرعة بريق أحمر، ثم اختفى، وظهر مرة أخرى، ثم مكث. أصبحت بداية ونهاية الباخرة أكثر وضوحاً. صرخت داخل الحجر «اصعدوا، بسرعة!» وعندها سمعت صوتاً أجش يقول من بعيد في الظلام: «أوقفها، سيدي» ثم جلجل الجرس. وصوت آخر صرخ محذراً: «نحن ذاهبون مباشرة إلى تلك السفينة، سيدي» الجواب على هذا كان مقتضباً: «تمام». وما حدث بعد ذلك هو ارتطام قوي كما لو أن الجزء العريض من مقدمة الباخرة اصطدم بأشرعتنا الأمامية السفلية على نحو خاطف. تبع ذلك فترة من الارتباك، والصراخ، والتراكم في كل اتجاه. وتعالى الصخب في السفينة. وعندئذ سمعت أحدهم يقول: «زال الخطر، سيدي»... «هل كل شيء على ما يرام؟» سأل الصوت الأجش. فقفزت إلى الأمام لرؤية الأضرار التي لحقت بالسفينة، وأجبت بصوت عالٍ، «أظن ذلك». «نحو مؤخر السفينة» قال الصوت الأجش. وجلجل الجرس. «أي باخرة هذه؟» صرخ ماهن. إذ لم تكن بالنسبة لنا في ذلك الوقت سوى ظل عظيم يتحرك على

مسافة قليلة منا. صرخوا علينا ببعض الأسماء؛ أسماء نساء، ميراندا أو ميليسا – أو شيء من هذا القبيل. «هذا يعني شهر آخر في هذه الحفرة الرهيبة» قال لي ماهن، فيما كنا نمعن النظر مع المصاييح حول واقبات الأمواج المتشقة والدعامات المتكسرة. «لكن أين القبطان؟».

لم نرَ أو نسمع أي شيء عنه طوال ذلك الوقت. لذا ذهبنا إلى مؤخر السفينة للبحث عنه. ارتفع صوت نداء حزين من مكان ما في وسط حوض السفن، «يهودا... أهوي⁹!» كيف وصل إلى هناك بحق الشيطان؟... «مرحباً!» صحننا. «جرفني التيار في زورق دون مجاذيف» صرخ. ثم قدّم ملاح جاء متأخراً خدماته، كما توصل ماهن إلى اتفاق معه بأن يجرب رباننا إلى جانب السفينة مقابل نصف كرونة، لكن السيدة بيرد صعدت السلم قبل الجميع. إذ كانوا عائمين حول حوض السفن تحت رذاذ المطر البارد لحوالي ساعة تقريباً. لم أفاجأ على ذلك النحو في حياتي من قبل.

يبدو أنه عندما سمع صراخي «اصعدوا» فهم فوراً ما الذي حدث، فأمسك زوجته، وركض على سطح السفينة، وعبر، ونزل في قاربنا الذي كان مثبتاً بالسلم. ليس سيئاً لرجل في الستين. فقط تخيلوا أن ذلك الرجل العجوز قد أنقذ بشكل بطولي تلك المرأة العجوز وحملها بين ذراعيه؛ امرأة حياته. ثم وضعها على مقعد المجدف، وكان مستعداً للتسلق والعودة إلى متن السفينة عندما طاف جبل توثيق القارب بطريقة أو بأخرى، وذهبا معاً بعيداً. وبالتأكيد لم نسمع صراخه في خضم الارتباك. إذ بدا عليه الخجل. وقالت زوجته بمرح: «أظن الآن أن فوات رحلة القطار لم يعد أمراً مهماً؟». «لا، جنّي، انزلي لتحصلي على بعض الدفء»

Ahoy!: صيحة البحارة. (المتجمة)

هدر قائلاً. وقال لنا بعد ذلك: «البحار لا شأن له بزوجته، بطبيعة الحال. كنت هناك، بعيداً عن السفينة. حسناً، لم يحدث ضرر هذه المرة. لنذهب ونرى ماذا خرّب ذلك المعتوه من الباخرة».

لم يكن الضرر كبيراً، لكنه أخرجنا لثلاثة أسابيع. وبعد نهاية تلك المدة، انشغل القبطان مع عماله، فحملت أنا حقيبة السيدة بيرد إلى محطة السكك الحديدية ووضعتها على نحو مريح في عربة الدرجة الثالثة. خفّضت النافذة لتقول لي: «أنت شاب طيب. إذا رأيت القبطان جون بيرد لا يرتدي شاله ليلاً، ذكره فقط بالنيابة عني بأن يحافظ على لف رقبته بالشال جيداً». «بالأكيد، سيدة بيرد» قلت. «أنت شاب طيب، لاحظت مدى اهتمامك بجون، بالقبطان». تحرك القطار فجأة، ورفعتُ قبعتي للسيدة العجوز التي لم أرها مرة أخرى على الإطلاق... مرر الزجاجة.

أبحرنا في اليوم التالي. فحين شرعنا في الإبحار باتجاه بانكوك كنا قد غادرنا لندن بالفعل منذ ثلاثة أشهر. وتوقعنا أن نكون في الخارج خلال أسبوعين تقريباً.

كنا في شهر يناير، والطقس جميل؛ طقس يوم شتوي رائع مشمس، أكثر روعة من أيام الصيف لأنه غير متوقع ومنعش، وأنت تعرف بأن هذا لن ولا يمكن أن يدوم لفترة طويلة؛ كمثل مكسب غير متوقع، أو هبة من السماء، أو حظ غير متوقع.

استمرت حالة الطقس على ذلك المنوال حتى نهاية بحر الشمال والقناة، وحتى حوالي ثلاثمئة ميل من ليزارد، وعندها تحولت الرياح إلى جنوبية غربية وبدأت تتصاعد شدتها. وبعد يومين هبت العاصفة. هاجت يهودا، وتقلبت على المحيط الأطلسي مثل صندوق شمع قديم. واستمرت العاصفة في هبوبها يوماً بعد يوم؛ هبت بغيظ، دون فاصل، دون رحمة، ودون راحة. ولم يكن العالم بالنسبة لنا إلا ضخامة موجات رغوية عظيمة تندفع نحونا، تحت سماء منخفضة بما يكفي للمسها باليد وقذرة مثل سقف مدخن. وفي الفضاء العاصف المحيط بنا ثمة رذاذ كثير متطاير كمثل الهواء. ويوم بعد يوم وليلة بعد ليلة لم يكن هناك حول السفينة سوى عصف الرياح، واضطراب البحر، وضجيج المياه المتدفقة على سطحها. لا راحة لها ولا راحة لنا. إذ قذفتها الأمواج، ورمتها، ووقفت على رأسها، وجلست على مؤخرتها، وتدحرجت، وتأوهت، وكان علينا أن نتماسك حينما نكون على السطح ونتشبث بالأسرة عندما نكون في الأسفل، بجهد جسدي متواصل وقلق نفسي.

وذاًت ليلة خاطبني ماهن من خلال نافذة مضجعي الصغيرة؛ النافذة تفتح مباشرة على سريري، وكنت مستلقياً هناك دون نوم، أرندي جزمتي وأشعر كما لو أنني لم أُنم منذ سنوات ولن أستطيع النوم حتى لو حاولت. قال بانفعال:

«هل أخذت مقياس عمق المياه معك إلى هنا، مارلو؟ لا أستطيع الوصول إلى المضخات لسحب المياه. يا إلهي! إنه ليس لعبة أطفال.»

أعطيته المقياس واستلقيت مرة أخرى، محاولاً التفكير بأشياء مختلفة، لكن تفكيري انحصر بالمضخات فحسب. وحين خرجت إلى سطح السفينة كانوا ما يزالون هناك، وحل دور مراقبتي للمضخات. ومع ضوء الفانوس الذي حملته معي إلى السطح لفحص مقياس العمق لمحت بسرعة وجوههم المرهقة، والجادة. ضخنا المياه لأربع ساعات؛ وطوال الليل، طوال اليوم، طوال الأسبوع، نراقب ونراقب المضخات. والسفينة تتفكك، وتسرب المياه على نحو خطير؛ ليس كافياً لإغراقنا فوراً، ولكنه كافٍ لقتلنا بالعمل على تشغيل المضخات. وبينما نضخ المياه تسيير السفينة بنا وتتفكك تدريجياً: ذهب الجدار (الدرابزين) المحيط بسطح السفينة، وانقلعت دعاماتها، وتحطمت المراوح، وانقلع باب الحجرة. إذ لم يكن هناك أي بقعة جافة في السفينة. ظلت تُخرج أحشائها شيئاً فشيئاً. والقارب الطويل تحوّل كما لو بفعل معجزة إلى شظايا خشبية فيما السفينة تقاوم أوجاعها. لقد جلدتها

بنفسي، وأجل كنت فخوراً بما عملت يداي، ذلك أني واجهت خبث البحر لفترة طويلة. ونحن مستمررون بضخ المياه. لم تتغير حالة الطقس؛ البحر أبيض مثل شرع من الزبد، أو مثل مرجل من الحليب المغلي، ولا توجد أي فجوة بين الغيوم، لا - ولا حتى بحجم الكف - لا، ولا حتى لعشر ثوانٍ. وبالنسبة لنا لم يكن هناك سماء، ولا نجوم، ولا شمس، ولا كون، ولا شيء سوى غيوم غاضبة وبحر هائج. نتناوب ونتناوب على ضخ المياه خوفاً على حياتنا، وبدا كما لو أن الأمر استمر لأشهر، ولسنوات، وإلى الأبد، وكأننا متنا وأرسلنا إلى جحيم البحارة. إذ نسينا أيام الأسبوع، واسم الشهر، وأي سنة كانت، أو إذا كنا سنصل إلى الشاطئ ذات يوم. وطارت الأشرطة الموضوعة على مقدمة السفينة تحت أشعة الإبحار، وانسكبت مياه المحيط عليها، ولم نهتم. أدركنا أذرع الرافعات، وكنا ننظر حولنا بذهول. وبمجرد أن نزحف على سطح السفينة اعتدت على القيام بجولة كاملة مع الحبل على الرجال، والمضخات، والصارى الرئيس، ونحن نتقلب ونتقلب باستمرار والمياه تصل إلى خاصرتنا، ورقابنا، وفوق رؤوسنا. كل شيء كان متشابهاً. حتى نسينا شعور أن تكون جافاً.

وفي مكان ما من عقلي فكرة: تالله¹⁰! هذا هو شيطان المغامرة، شيء قرأت عنه، وهذه هي رحلتي الأولى مساعداً للربان، ولم أتجاوز العشرين عاماً، وهنا أنا صامد في هذه المغامرة مثل أي رجل من هؤلاء الرجال، وحريص على أن يبقى أداء رجالي ضمن المستوى

المطلوب، وكنت مسروراً. لن أتخلى عن هذه التجربة ولو في مقابل العالم. ولقد مررت بلحظات شعرت فيها بالغبطة. وكلما تأرجحت السفينة القديمة المفككة وتقلبت بقوة عالياً في الهواء، بدت لي وكأنها تطلق ما يشبه الاستغاثة، ما يشبه التحدي، ما يشبه الصرخة إلى غيوم بلا رحمة بالكلمات المكتوبة على مؤخرتها:

«يهودا، لندن. الحياة أو الموت».

أه الشباب! قوته، إيمانه، خياله! لم تكن السفينة بالنسبة لي مجرد عربة قديمة تشحن إلى العالم الكثير من الفحم، بل مثلت المحاولة، والاختبار، وتجربة في الحياة. أتذكرها بسعادة، وشغف، وأسف، مثلما تتذكر شخص ميت قد أحببته. لن أنساها... مرر الزجاجة.

ذات ليلة عندما كنا مربوطين بالسارية، كما وضحت، نضخ المياه، صمّ بسبب الرياح، ودون شجاعة كافية لثمني الموت لأنفسنا، ضربت موجة ثقيلة سطح السفينة واكتسحت كل شيء حولنا. وبمجرد أن التقطت أنفاسي صرخت كما لو أنني ملزم بواجب: «لا تستسلموا يا رجال!» عندها شعرت فجأة بشيء صلب يطفو على سطح السفينة ضرب ريلة ساقى. حاولت الإمساك به وفشلت. لأن المكان مظلم إلى حد أننا لم نستطع رؤية وجوه بعضنا على بعد قدم واحدة.

بعد تلك الضربة القوية ظلت السفينة ساكنة تماماً لبعض الوقت، وذلك الشيء، أياً كان، ضرب ساقي مرة أخرى. أمسكت به هذه المرة، واتضح أنه قدر صغير. في البداية تلبدت من التعب والتفكير بالمضخات ولا شيء آخر، لذا لم أدرك ما الذي في يدي. وفجأة فهمت ما حدث، وصرخت: «يا رجال، غرق المسكن على سطح السفينة. اتركوا هذا، ودعونا نبحث عن الطباخ».

ثمة مسكن مبني على سطح السفينة يشتمل على المطبخ، ومضجع الطباخ، ومهاجع أفراد طاقم السفينة. وبما أننا توقعنا منذ أيام رؤيته ينجرف بعيداً، أمرنا العمال النوم في المقصورة؛ المكان الوحيد الآمن في السفينة. المضيف إبراهيم ظل رغم ذلك متشبثاً بمضجعه بغباء مثل بغل، نتيجة خوف كبير كما أظن؛ مثل حيوان لا يريد أن يترك الإسطبل وهو ينهار بسبب هزة أرضية. ولهذا ذهبنا للبحث عنه. كانت مخاطرة مميتة، لأن خروج أحد من مجموعتنا يعرضنا للخطر كما لو أننا نقف على طوف. لكننا خرجنا. وتحطم المسكن كما لو أن قذيفة انفجرت في داخله. وجزء كبير منه سقط في المياه وانجرف بعيداً عن السفينة، وكذلك الموقد، ومهاجع الرجال وممتلكاتهم، ذهب كل شيء، عدا عمودين متشبثين بقطعة من الجدار الداخلي حيث سرير إبراهيم مثبتاً به، بقيا كما لو كان ذلك بفعل معجزة. بحثنا في الحطام وعثرنا على العمودين ووجدناه هناك؛ يجلس في سريره، محاطاً بالزبد وحطام السفينة، ويهذي بسعادة مع نفسه. لقد فقد عقله، جُن تماماً وإلى الأبد، إذ إن تلك الصدمة المفاجئة قضت على ما تبقى من قدرته على التحمل. انتزعناه، سحبناه إلى مؤخر السفينة، وأنزلنا رأسه أولاً إلى أسفل درج الحجر. فكما تعرفون لم يكن لدينا وقت لحمله إلى أسفل مع احتياطات لا نهاية لها، ثم ننتظر لنرى كيف تتحسن حالته. فأولئك الرجال في الأسفل سينتشلوه من أسفل الدرج مباشرة. إذ كنا في عجلة للعودة إلى المضخات. لأن ذلك العمل لا يمكن أن ينتظر. فالتسرب الرديء شيء غير إنساني.

قد يظن المرء أن الهدف الوحيد من تلك العاصفة الوحشية هو جعل ذلك الشيطان البائس الخلاسي مجنوناً. فلقد خفت العاصفة قبل الصباح، وفي اليوم التالي صفت السماء، وكان البحر عالج التسرب. وعندما وصلنا إلى تثبيت مجموعة جديدة من الأشرطة طلب الملاحون تأجيل ذلك العمل، ولم يكن هناك في الواقع أي شيء آخر للقيام به. إذ جرفت المياه القوارب بعيداً، وسطح السفينة نظف تماماً، والحجرة أزيحت من مكانها، والرجال دون ملابس، لكنهم يقفون على سطحها، كما تلفت المؤن، وأجهدت السفينة. وضعنا رأسها في مكانه، و – هل تصدق؟ تحولت الرياح إلى شرقية معتدلة في أسناننا؛ هبوب منعش، ومتواصل. لذا وجب علينا قهر كل شبر في الطريق، غير أنها لم تسرب بشكل سيئ للغاية، وظلت المياه هادئة نسبياً. فساعتان من الضخ كل أربع ساعات ليست مزحة، لكن ذلك أبقاها عائمة حتى وصولها إلى فالمت.

الطيون الذين يعيشون هناك على ضحايا البحر فرحوا لرؤيتنا دون شك. إنهم مجموعة جائعة من صانعي السفن يشحنون أزاميلهم على مرأى هيكل السفينة. و، تالله! حصلوا

على حصاد جيد منا قبل إنجازهم العمل. أتخيل أن المالك كان في وضع صعب بالفعل. ثمة تأخير حدث. وتقرر بعد ذلك أخذ جزء من الحمولة وسد الشقوق العلوية. وقد تم ذلك، وانتهت التصليحات، وأعدنا شحن الحمولة، وصعد طاقم جديد على متن السفينة، ثم غادرنا نحو بانكوك. وفي نهاية الأسبوع عدنا مرة أخرى. إذ صرح الملاحون بعدم رغبتهم الذهاب إلى بانكوك في رحلة تستغرق مئة وخمسين يوماً، في ذلك الشيء الماجن الذي يحتاج الضخ ثمان ساعات من أربع وعشرين ساعة، وأدرج في أوراق البحرية الفقرة التالية مرة أخرى: «يهودا. سفينة شرعية. من نهر التاين إلى بانكوك. الفحم. عادت إلى فالمت متضررة مع طاقم يرفض أداء الواجب».

حدث المزيد من التأخير والمزيد من التصليحات. وذات يوم انهار المالك وقال بأن السفينة مُحكّمة مثل كمان صغير. وبدا القبطان العجوز المسكين بيرد مثل شبح ربان جوردي¹¹

جوردي (Geordie): هو لقب ولهجة سكان تينسايد، منطقة في شمال شرق إنكلترا. واللهجة الجورديية هي تطوير للغة التي كان يتحدث بها السكان الأنغلو ساكسونيين. ربما قصد المؤلف أن القبطان كما لو كان يتحدث بهذه اللهجة لارتبأكه. (الترجمة)

بسبب القلق والخزي مما حدث. تذكّر أنه في الستين، وتلك هي مهمته الأولى. إذ قال ماهن إنها مهمة سخيفة وستنتهي على نحو سيئ. لذا أحببت السفينة أكثر من السابق، وأردت الوصول إلى بانكوك بشدة. إلى بانكوك! ذلك الاسم ساحر، الاسم مبارك. فحتى بلاد ما بين النهرين لا ترقى إليها. تذكروا أنني كنت في العشرين وذلك أول تكليف رسمي مساعداً ثانياً للربان، والشرق بانتظاري.

استعدنا ورسونا في مرافئ خارجية مع طاقم جديد، الطاقم الثالث. وأصبح تسرب المياه أفضح من ذي قبل. كما لو أن نجاري السفن المرتبكين أولئك قد صنعوا حفرة فيها في الواقع. فهذه المرة لم نذهب حتى إلى الخارج. ورفض طاقم الملاحين ببساطة الاستخدام اليدوي للآلة الرافعة.

سحبونا مرة أخرى إلى الميناء الداخلي، وأصبحنا مظهرًا ثابتًا، وميزة، وسمة للمكان. كان السكان يشيرون إلينا للزوار على أننا «السفينة الشرعية المتوجهة إلى بانكوك، هم هنا منذ ستة أشهر، أجلت رحلتهم لثلاث مرات» وفي العطل يتجول الأطفال الصغار في القوارب وينادون «يهودا، أهوي!» وإذا ظهر رأس أحد الرجال من فوق الدرابزين يصيحون: «إلى أين أنتم متوجهون؟ بانكوك؟» ويضحكون بسخرية. كنا ثلاثة فقط على متن السفينة. والربان العجوز المسكين يجلس في القمرة. وباشر ماهن الطبخ، وبشكل غير متوقع طور كل عبقرية الرجل الفرنسي في إعداد وجبات صغيرة لذيذة. وراقبت أنا بفتور حبال الأشرعة والصواري. إذ أصبحنا مواطنين فالمثيين، يعرفنا كل أصحاب المتاجر، والحلاقون وبائعو التبغ يسألون الأسئلة نفسها: «هل تظنون بأنكم ستصلون إلى بانكوك في يوماً ما؟»

وفي غضون ذلك يتشاجر كل من المالك، والضامن، ومستأجري السفينة مع بعضهم البعض في لندن، وأجورنا مستمرة... مرر الزجاجة.

كان ذلك فظيماً. وأخلاقياً هو أسوأ من ضخّ المياه مدى الحياة. كما لو أن العالم قد نسينا، ولا ننتمي إلى أحد، ولن نصل إلى أي مكان، كما لو أننا مسحورون، وسيكون علينا العيش دائماً وأبداً في ذلك المرفأ الداخلي، وأصبحنا محل سخرية وعبرة لأجيال من المتسكعين والبحارة المخادعين على طول ساحل البحر.

حصلت على راتب ثلاثة أشهر وخمسة أيام إجازة، لذا أسرعنا إلى لندن. فلقد تطلب مني الوصول إلى هناك يوماً كاملاً ويوماً آخر تقريباً للعودة، لكنني أنفقت راتب ثلاثة أشهر أيضاً. ولا أعرف ماذا فعلت به. إذ ذهبت إلى صالة الموسيقى، حسب ما أذكر، وتناولت الغداء، ثم العشاء في مكان أنيق في ريجنت ستريت، وعدت في الوقت المناسب، ولم يكن معي شيء سوى المجموعة الكاملة لأعمال بايرون وديثار سفر لعرض حصيلة عمل ثلاثة أشهر. المراكبي الذي أقلني إلى السفينة، قال: «مرحباً! كنت أظن أنك قد تركت ذلك الشيء القديم. سوف لن تصل إلى بانكوك». «هذا كل ما تعرفه!» قلت بسخرية، لكنني لم أحبذ تلك النبوءة على الإطلاق.

وفجأة ظهر رجل؛ ما يشبه العميل لشخص ما مع صلاحيات كاملة. يظهر على كل وجهه احمرار الافراط في تناول الشراب؛ طاقته لا تُقهر وروحه مرحة. إذ دبّ فينا الحياة من جديد. اقتربت السفينة من رصيف الميناء، وأخذنا كل بضاعتنا، وذهبنا بعد ذلك إلى حوض جاف لنحصل على الشرائح النحاسية خاصتنا. فلا عجب أن السفينة تُسرب المياه؛ السفينة المسكينة قد أرهقت بعد جلد في مواجهة العاصفة، وبصقت كل مشاققة الكتان من شقوقها السفلية كما لو كانت في حالة غثيان. إذ أعدنا جلفطتها مرة أخرى وسُدت الشقوق بالنحاس من جديد وأغلقت بإحكام كما تُغلق فوهة زجاجة. ثم عدنا إلى السفينة وأعدنا شحن بضاعتنا.

وفي ليلة مقمرة جميلة، هربت كل الجرذان من السفينة.

لقد أصبنا بوبائهم. إذ أتلفت الأشرعة، واستهلكوا من المخزون أكثر مما استهلكه طاقم الملاحين، وتقاسموا بحميمية أسرتنا وأخطارنا، والآن، حين أعدت السفينة لتكون صالحة للإبحار، قرروا الانصراف. ناديت ماهن للاستمتاع بالمشهد؛ جرد بعد آخر يظهر على السلم، ينظر نظرة أخيرة فوق كتفيه ويقفز مع جلجلة جوفاء في السفينة الفارغة. حاولنا عدّهم، لكن سريعاً ما أضعنا العد. قال ماهن: «حسناً، حسناً! لا تحدثني عن ذكاء الجرذان. كان عليهم أن يغادروا من قبل، عندما نجونا بالكاد من الغرق. لدينا دليل على سخافة الخرافات حولهم. غادروا سفينة جيدة من أجل سفينة قديمة تالفة، حيث لا يوجد أي شيء للأكل،

وأيضاً، الحمقى!... لا أظن بأنهم يعرفون ما هو آمن وما هو صالح بالنسبة لهم، أكثر منك أو مني».

وبعد حديث طويل اتفقنا على أن حكمة الجرذان أمر مبالغ فيه، كونها في الواقع ليست أعظم من حكمة الرجال.

قصة السفينة كانت معروفة، ولهذا السبب، لم نتمكن من الحصول على طاقم ملاحين في الساحل الجنوبي، على طول نهر المانش من لاند أيند¹² إلى فولاند¹³. لذا أرسلوا لنا طاقم ملاحين كاملاً من ليقربول، وغادرنا مرة أخرى باتجاه بانكوك.

نسيم معتدل، ومياه رائقة صوب المناطق الإستوائية، ويهودا القديمة تسير بتثاقل إلى الأمام في ضوء الشمس. وعندما سارت نحو ثمانية أميال بحرية انهار كل شيء فوق ظهر السفينة،

Land's End: أرض رأسية ومكان سياحي في غرب كورنوال إنجلترا. **Foreland: أقصى شرق جزيرة وايت. (المتجمة)

وعصنا رؤوسنا، لكنها في أكثر الأحيان تسير بسرعة ثلاثة أميال في الساعة. إذ ماذا تتوقعون؟ إنها متعبة؛ تلك السفينة القديمة. شبابها هو شبابي - شبابك - شباب رفاقك الذين يسمعون هذه الحكاية، وماذا يريد الصديق، أن يرمي عمرك وتعبك في وجهك؟ لذا لم نشك منها. بالنسبة لنا على الأقل بدا كما لو أننا ولدنا فيها، تربينا فيها، عشنا فيها منذ زمن طويل ولا نعرف أي سفينة أخرى غيرها. حتى إنني أود التفريط بكنيسة القرية القديمة في الوطن لكونها ليست كاتدرائية..

وبالنسبة لي كان لدي أيضاً شبابي الذي جعلني صبوراً. والشرق برمته أمامي والحياة برمته وفكرة أنني حاولت في تلك السفينة وخرجت بشكل مشرف. وفكرت بالرجال القدامى في القرون الماضية الذين أبحروا في سفن ليست أفضل من تلك السفينة إلى بلاد النخيل والتوابل والرمال الصفراء والأمم السمراء التي يحكمها ملوك أشد قسوة من نيرو الروماني وأكثر ترفاً من سليمان اليهودي.

تحركت السفينة القديمة بتثاقل، ثقيلة بسبب عمرها وعبء حمولتها، في حين أعيش أنا شبابي بجهل وأمل. تتحرك بتثاقل في مسيرة لا تنتهي من الأيام، والطلاء الجديد يومض عند غروب الشمس، وبدت كما لو أنها تصرخ فوق البحر المظلم بالكلمات المرسومة على مؤخرتها، «يهودا، لندن. الحياة أو الموت».

وحينذاك دخلنا المحيط الهندي وأدرنا دفة السفينة شمالاً لرأس جاوا¹⁴. الرياح خفيفة. والأسابيع تمضي. والسفينة تزحف على «الحياة أو الموت» والناس في الوطن بدؤوا يفكرون بإدراجنا في خانة المتأخرين.

في مساء السبت، كنت خارج الخدمة، وطلب مني الرجال دلواً إضافياً من الماء أو شيئاً من هذا القبيل، لغسل الملابس. لم أرغب بإضاعة الوقت في ضخ مياه عذبة في تلك الساعة المتأخرة، لذا ذهبت وأنا أصفر والمفتاح في يدي لفتح باب المخزن الأمامي بقصد أخذ الماء من الخزان الاحتياطي الذي نحتفظ به هناك.

الرائحة في الأسفل كانت مفاجئة لدرجة مخيفة. سوف يظن المرء أن المئات من مصابيح البرافين تحترق وتدخن في تلك الحفرة منذ أيام. ولذا سررت عند خروجي من ذلك المكان. سعل الرجل الذي معي وقال: «رائحة غريبة، سيدي»، فأجبت بلا مبالاة: «يقولون، إنها جيدة للصحة» ومشيت خلفه.

أول شيء فعلته بعد ذلك هو وضع رأسي تحت المروحة المربعة في وسط السفينة. وعندما

رفعت الغطاء تصاعد من الكوة هواء مرئي، ما يشبه ضباباً رقيقاً، أو نسمة من سديم خافت. الهواء المتصاعد كان ساخناً ورائحته ثقيلة، وسخامية، وبارافينية. شممتها لمرة واحدة وأعدت وضع الغطاء بلطف. إذ لا فائدة من خنق نفسي. ثم اشتعلت الحمولة.

في اليوم التالي بدأت تدخن بجدية. وكما ترى فإن هذا متوقع، رغم أن الفحم من النوع الآمن، فلقد تم التعامل مع تلك البضاعة على هذا الأساس، تكسر الفحم بسبب النقل، وأصبح شبيهاً بفحم الحدادة أكثر من أي شيء آخر. وتبلل بعد ذلك أكثر من مرة. واستمر المطر بالهطول طوال وقت استعادته من السفينة، والآن مع هذه الرحلة الطويلة أصبح ساخناً، وثمة حالة أخرى من الاحتراق التلقائي.

استدعانا القبطان إلى القمرة؛ فرش خريطة على الطاولة، وبدا عليه الحزن. قال: «ساحل غرب أستراليا قريب، لكنني أقصد المضي قدماً نحو وجهتنا. إنه شهر إعصار مداري أيضاً، إلا أننا سنبقي رأسها باتجاه بانكوك ونكافح الحريق. لا مزيد من التأخير في أي مكان ولو احترقنا جميعاً. لذا سنحاول أولاً كبح هذا الاحتراق اللعين بمنع وصول الهواء إليه».

لقد حاولنا. وثبتنا العوارض الخشبية في كل مكان، وما زالت تدخن. الدخان ظل يخرج من خلال الشقوق تدريجياً، واندفع كذلك من خلال الحواجز والأغطية؛ يتسرب من هنا وهناك ومن كل مكان على شكل خيوط رفيعة، بصورة غير مرئية وطريقة غامضة. إذ شق طريقه نحو القمرة، ونحو مقدمة السفينة، وسمم أماكن محمية على سطح السفينة، إذ يمكن شم

الدخان من علو قائم الشراع الرئيس. ومن الواضح أن مع خروج الدخان، يدخل الهواء. وهذا محبط. لذا أبى الحريق أن يخمد.

عزمنا على إخماده بالماء، وفتحنا أغطية الفتحات. أحجام هائلة من الدخان الأبيض، والأصفر، والسميك، والدهني، والضبابي الخانق، تتصاعد بارتفاع الحمولة. لذا انصرف كل العمال نحو مؤخر السفينة. وطارت بعد ذلك سحابة سامة بعيداً وعدنا إلى العمل في دخان لم يكن أكثر كثافة من دخان مدخنة مصنع عادية.

جهزنا مضخة الدفع وخرطوم المياه، وبعدها انفجر. حسناً، كان قديماً مثل السفينة؛ خرطوم من عصور ما قبل التاريخ، وتم تصليحه في الماضي. ثم بدأنا ضخ المياه بالمضخة الرئيسة الضعيفة، وحملنا الماء بالدلاء، وبتلك الطريقة تمكنا من إفراغ الكثير من المحيط الهندي في الفتحة الرئيسة في الوقت المحدد. لمع تيار المياه الساطع في أشعة الشمس، وامتزج مع طبقات الدخان البيضاء الزاحفة وتلاشى على السطح الأسود للفحم. وسكبنا الماء المالح في برمبل بلا قاعدة. إذ إن قدرنا ضخ المياه في تلك السفينة، لإزاحة المياه عنها، ولإدخال المياه إليها، وبعد إبقاء المياه خارجها لحماية أنفسنا من الغرق، صببنا الماء فيها بجنون لحماية أنفسنا من الاحتراق.

والسفينة تزحف على الحياة أو الموت، في طقس رائق، والسماء مثل معجزة من النقاء، معجزة من أزرق سماوي. والبحر لامع، وأزرق، وصاف، يتلألأ مثل حجر كريم، ممتد إلى جميع الجهات، وجميع الأنحاء حتى الأفق - كما لو أن الكرة الأرضية برمتها جوهرة واحدة، ياقوتة هائلة واحدة، جوهرة فريدة صُمت لتكون جرماً سماوياً. وعلى بريق المياه الهادئة العظيمة تنزلق يهودا على نحو غير ملحوظ، مغلفة ببخار قذر وواهن، وسحابة كسولة انجرفت باتجاه الريح، بخفة وبطء: سحابة خبيثة تدنس روعة البحر والسماء.

لم نر ناراً بالطبع طوال ذلك الوقت. فلقد احترق الفحم في مكان ما من القاع. وقال لي ماهن ذات مرة مع ابتسامة غريبة عندما كنا نعمل جنباً إلى جنب: «الآن فقط إذا سربت السفينة تسرباً عظيماً، مثلما حدث حين غادرنا القناة لأول مرة، سيضع هذا حداً للحريق. أليس كذلك؟». وقدمت ملاحظة لا علاقة لها بما قاله، «هل تذكر الجرذان؟».

حاربنا النار وأبحرنا بالسفينة بحذر كما لو أن شيئاً لم يحدث. طبخ المضيف الطعام وقدمه لنا. ومن بين اثني عشر آخرين، ثمانية منهم كانوا يعملون والباقي أخذوا قسطاً من الراحة. فكل شخص أخذ دوره، والقبطان مشمول أيضاً. ثمة مساواة، وإن لم تكن أخوية تماماً، وهناك قدر من المشاعر الجميلة فيما بيننا. إذ يصرخ أحد الرجال أحياناً، عندما يقذف بعنف دلواً مملوءاً بالماء في الكوة، «هورا! إلى بانكوك!» والباقي يضحكون. لكن عموماً كنا قليلي الكلام وجادين وعطشى. أوه! كم كنا عطشى! وينبغي علينا الحرص في استخدام الماء. إنه ترخيص متشدد. لكن السفينة تُدخن، والشمس متوهجة... مرر الزجاجاة.

جربنا كل شيء، حتى إننا حاولنا الحفر وصولاً إلى النار. وهذا خطأ بالتأكيد. إذ لا يمكن لأي رجل أن يبقى هناك لأكثر من دقيقة واحدة. وماهن، الذي ذهب أولاً، أغمي عليه هناك، والرجل الذي ذهب لإخراجه من هناك أغمي عليه أيضاً. فسحبناهما إلى سطح السفينة. وقفزت بعد ذلك إلى أسفل لأستعرض مدى السهولة التي تم بها الأمر. لقد تعلموا الحكمة في ذلك الوقت، واكتفوا باصطيادي بسلسلة في نهايتها كلاب ومربوطة بمقبض مكنسة، على ما أظن. ولم أقدم على النزول وجلب مجرفتي التي تُركت في الأسفل.

بدأت الأمور تسوء. لذا أنزلنا القارب الطويل إلى الماء. والقارب الثاني أصبح جاهزاً لإنزاله. لدينا أيضاً قارب آخر، طوله أربعة عشر قدماً، على الروافع في مؤخر السفينة الذي كان آمناً تماماً.

وفجأة تضاعل الدخان. فضاعفنا جهودنا لإغراق قاع السفينة. وخلال يومين لم يكن هناك أي دخان على الإطلاق. والجميع كان عابساً على متن السفينة. حدث ذلك في يوم الجمعة. إذ لا عمل في يوم السبت، لكن السفينة تبحر بالطبع. غسل الرجال ملابسهم ووجوههم لأول مرة منذ أسبوعين وقدم لهم عشاء خاص. وتحدثوا عن الاحتراق التلقائي باحتقار، وأضمرُوا بأنهم هم الرجال الذين أخمدوا الحريق. وبطريقة ما شعرنا جميعاً كما لو أن كل واحد منا قد ورث ثروة كبيرة. لكن رائحة الحريق الكريهة معلقة حول السفينة. والقبطان بيرد أصبحت عيناه غائرتين وخداه متهدلين. ولم ألاحظ كثيراً من قبل كم كان محنياً وأحذب. هو وماهن تفقدًا بجدية الكوات والمراوح بالشم. وما صدمني على نحو مفاجئ هو كم أن المسكين ماهن رجل عجوز جداً، جداً. أما بالنسبة لي، فكنت سعيداً ومسروراً كما لو أنني ساهمت في تحقيق النصر في معركة بحرية عظيمة. أوه! الشباب!

الليل رائع. وفي الصباح مرت بالقرب منا سفينة متجهة إلى الوطن؛ السفينة الأولى التي رأيناها منذ أشهر، لكننا اقتربنا من الأرض أخيراً، إذ إن رأس جاوا كان يبعد عنا بحوالي 190 ميلاً، نحو الشمال تقريباً.

في اليوم التالي حان دور حراستي على متن السفينة من الثامنة وحتى الثانية عشرة. وعند الفطور أبدى القبطان ملاحظته: «كم هي رائحة تلك الرائحة التي تحوم حول المقصورة». وفي حوالي الساعة العاشرة كان مساعد الربان على مؤخر السفينة، وأنا نزلت إلى السطح الرئيس للحظة. اتكأت على مقعد النجار خلف الصاري الرئيس وأنا أدخن غليوني، والنجار رجل شاب، جاء للحديث معي. قال: «أظن أننا قد أبلينا بلائاً حسناً، أليس كذلك؟» ثم تحسست بانزعاج أن أحقق حاول إمالة المقعد. فقلت باقتضاب: «لا تفعل، يا أحقق!» وفوراً أصبحت مدركاً لإحساس غريب، وهم سخيف؛ كما لو أنني بطريقة أو بأخرى في الهواء. سمعت كل شيء حولي مثل نفس مكبوت قد تحرر، كما لو أن ألف عملاق قالوا في وقت واحد فووووو! وشعرت بارتجاج خفيف تسبب الألم مفاجئ في ضلوعي. لا شك في ذلك، أصبحت في الهواء، واتخذ جسدي شكلاً شلجيمياً قصيراً. لكن رغم قصر الحدث

كان لدي وقت للتفكير بالعديد من الأفكار، بقدر ما أستطيع أن أتذكر، فكرت بالأمر التالي: «لا يمكن أن يكون هذا بسبب النجار، ما هذا؟» حادثة، أم بركان تحت البحر؟ فحم، غاز! يا إلهي! لقد انفجرت السفينة، ومات الجميع، أنا ساقط في الفتحة التالية وأرى الحريق فيها.

غبار الفحم المعلق في هواء مخزن السفينة توهج بلون أحمر باهت في لحظة الانفجار. وفي طرفة عين، في جزء صغير من الثانية منذ الميل الأول للمقعد، كنت منبطحاً على الحمولة. جمعت نفسي وتمكنت من الخروج. تم ذلك بسرعة مثل رد فعل تلقائي. وكان سطح السفينة صحراء من أخشاب محطمة، ممتدة بالعرض مثل أشجار في غابة بعد إعصار، وستارة هائلة من خرق متسخة تتحرك بلطف مثل موجة أمامي، فذلك هو الشراع الرئيس الذي انفجر إلى شرائط. فكرت في أن صواري السفينة سوف تسقط في الحال، وللتخلص من ذلك هربت على قوائم الأربعة باتجاه السلم على سطح مؤخر السفينة. وماهن هو أول شخص رأيته؛ عيناه مثل بوتقتين، وفمه مفتوح، وشعره الأبيض الطويل يقف مستقيماً حول رأسه مثل هالة فضية. كان يهم بالنزول عند رؤية السطح الرئيس يرتجف، ويرتفع، ويتحول إلى شظايا أمام عينيه، لذا تسمر في مكانه أعلى السلم. نظرت إليه غير مصدق، وحقق بي مع نوع غريب من الدهشة المروعة. إذ لم أكن أعرف بأني بلا شعر ولا حواجب ولا رموش، وأن شاربي الشاب قد احترق، وأن وجهي أسود، وخدي مبجوج، وأنفي مقطوع، وذقني ينزف. فقدت قبعتي، وإحدى فرديتي خفي، وقميصي تمزق إلى خرق. لم أكن مدركاً لكل ذلك. إذ كنت مذهولاً من رؤية السفينة وهي ما تزال عائمة، وسطح مؤخر السفينة سليماً، والأهم من ذلك كله هو أن ترى أي إنسان على قيد الحياة. وكذلك سلام السماء وصفاء البحر كان مفاجئاً بلا شك. وأظن أنني توقعت رؤيتهما ينتفضان من الرعب... مرر الزجاجاة.

ثمة صوت هتاف للسفينة من مكان ما؛ في الهواء، في السماء، من يدري! وفي الحال رأيت القبطان منفعلاً. وسألني بلهفة: «أين طاولة القمرة؟»، سماع مثل ذلك السؤال صدمة مخيفة. لقد انفجرت للتو، كما تعلمون، وكنت مضطرباً من تلك التجربة. ولم أكن متأكداً تماماً ما إذا كنت على قيد الحياة. وبدأ ماهن بضرب السطح بكلتا قدميه وصاح عليه: «يا إلهي! ألم ترَ انفجار سطح السفينة؟» استرددت قدرتي على الكلام وتلعثمت كما لو كنت مدركاً لبعض الأهمال الفادح في أداء الواجب: «لا أعلم أين طاولة القمرة؟» بدا الأمر مثل حلم سخييف.

هل تعرفون ماذا كان يريد بعد ذلك؟ حسناً، أراد تصليح عوارض الأشرعة. وبهدوء تام كما لو أنه مستغرق في التفكير، أصرَّ على أخذ الصاري المربع المنخفض المساند للشراع. «لا أعلم إن كان هناك أي شخص على قيد الحياة» قال ماهن، واغرورقت عيناه بالدموع. «بالتأكيد» قال بلطف، «سيكون هناك ما يكفي منهم لتسوية الصاري».

الرجل العجوز، كما يبدو، كان في مضجعه يدور الكونومتر عندما جعلته الصدمة يدور حول نفسه. وفوراً ظهر له، كما قال ذلك لاحقاً، أن السفينة اصطدمت بشيء ما، وركض إلى القمرة. وهناك رأى أن طاولة القمرة قد اختفت في مكان ما. وتُسف سطح السفينة، وسقط في قبو السفينة بطبيعة الحال. وعندما تناولنا فطورنا ذلك الصباح رأى فقط حفرة كبيرة في الأرضية. فلقد بدت له غامضة على نحو فظيع، وأثرت فيه كثيراً، حتى إن ما رآه وسمعه بعد أن صعد سطح السفينة إذا ما قورن بها، مجرد تفاهات. ولاحظ مباشرة أن العجلة مهملة وأن مركبه بعيد عن مساره وأصبحت فكرته الوحيدة هي إعادة ذلك الهيكل البائس، والمفكك، والمكشوف، والمحترق من السفينة مرة أخرى ورأسها يشير إلى ميناء الوصول، بانكوك! وهذا ما حدث بعد ذلك. لقد قلت لكم إن ذلك الأفحج، المحني، الهادي، الرجل الصغير المشوه تقريباً، رجل عظيم في صلابته فكرته وتجاهله الهادي لانفعالنا. والذي أوماً لنا أمراً بالتقدم وذهب ليتولى القيادة بنفسه.

نعم، هذا أول شيء فعلناه؛ تعديل صواري ذلك الحطام! لم يُقتل أحد أو حتى يُعاق، لكن الجميع مصاب تقريباً. إذ عليكم رؤيتهم حتى تصدقوا! بعضهم أصبحت ملابسهم خرقاً، ووجوههم سوداء مثل حمالي الفحم، أو مثل الكئاسين، ورؤوسهم مستديرة وتبدو شعورهم مقصوفة عن قرب، وهذا لأن جلودهم قد احترقت. وآخرون، من الحراس خارج الواجب، استيقظوا على ضجة انهيار أسرتهم، هؤلاء ظلوا يرتعشون باستمرار، ويأنون حتى عند متابعتنا أعمالنا. غير أنهم واصلوا العمل جميعاً. لأن لدي الطاقم للحالات الصعبة من ليقربول المواد الخام الحقيقية. ومن تجربتي هم دائماً يمتلكونها. إذ إن البحر منحها لهم، والرحابة، والوحدة التي تحيط بأرواحهم الكئيبة متبلدة الحس. أه! حسناً! تعثرنا، ومشيناً على رؤوس أصابعنا، وسقطنا، وتخدشت سيقاننا ونحن نتسلق حطام السفينة، وسُحبنا. ثم انتصبت الصواري، لكننا لم نكن نعرف مقدار ما قد أحرق منها في الأسفل. وكان الطقس هادئاً تقريباً، إلا أن موجة طويلة أسرع من الغرب وجعلتها تتمايل. لذا قد تذهب الصواري في أي لحظة. وكنا ننظر إليها بتوجس. إذ لا يمكن التنبؤ بأي طريقة سوف تقع.

وتراجعنا بعد ذلك إلى الخلف ونظرنا حولنا؛ سطح السفينة كان عبارة عن تشابك من ألواح على حوافه، ومن ألواح منتصبة، وشظايا الخشب، وأخشاب محطمة. وتبرز الصواري في وسط تلك الفوضى مثل شجرة كبيرة فوق شجيرات متشابكة. والفجوات في تلك الكتلة من الحطام مليئة بشيء ضارب إلى البياض، رخو، متحرك، شيء يشبه ضباباً شحمياً. وتصاعد دخان من حريق غير مرئي مرة أخرى، مثل سحب، أو مثل ضباب سام كثيف اختنق بخشب ميت في أحد الأودية. وخيوط دخان بطيئة بدأت بالالتفاف صعوداً بين كتلة الشظايا الخشبية. وقطعة من الخشب هنا وهناك، عالقة في وضع مستقيم، تشبه العمود. كما أن نصف درابزين الصاري اخترق الشراع الأمامي، وصنعت السماء رقعة زرقاء رائعة في الشراع المتسخ بشكل مخز. وسقط لوح من ألواح خشبية متعددة تمسك ببعضها البعض على درابزين الصاري، إحدى نهايتيه تبرز من سطح السفينة، مثل ممشى يؤدي بك

إلى لا شيء، أو مثل ممشى يؤدي بك إلى بحر عميق، إلى الموت، كما لو دُعيْنَا إلى المشي على اللوح حالاً وطويْنَا صفحة متاعبنا السخيفة. وما يزال الهواء، أو السماء، أو شبح، أو شيء غير مرئي ينادي السفينة.

شخص ما كان لديه الإدراك لإلقاء نظرة، وهو قائد الدفة الذي قفز باندفاع إلى البحر متلهفاً للعودة. صاح وسبح بنشاط مثل حوري الماء مواكباً للسفينة. فألقينا إليه الحبل، والآن يقف هو بين إبحارنا مع التيار وخيبة الأمل. تخلى القبطان عن العجلة، ووقف على جنب، يضع كوعه على درابزين السفينة وذقنه في كفه وينظر إلى البحر بحزن. وسألنا أنفسنا، ما الخطوة التالية؟ أتذكر الآن شيئاً من ذلك القبيل. هذا عظيم. إذ تساءلت ما الذي سوف يحدث. أوه، الشباب!

فجأة أبصر ماهن باخرة تبحر بعيداً. قال القبطان بيرد: «قد يقدمون لنا خدمة الآن» رفعنا علمين يقولان بلغة البحر الدولية: «حريق. نريد مساعدة عاجلة» كُبر حجم الباخرة بسرعة، وفيما بعد خاطبنا علمين على صاربيها الأمامي: «أنا قادم لمساعدتكم».

في غضون نصف ساعة كانت إلى جانب سفينتنا، مواجهة للريح، قريبة جداً، تمايلت قليلاً، ثم توقف محركها. فقدنا رباطة جأشنا وصحنا جميعاً بانفعال: «لقد انفجرت السفينة». فصرخ رجل يرتدي خوذة بيضاء ويقف على الجسر: «نعم! حسناً! حسناً!» وهز رأسه وابتسم، قام بحركات مهدئة بيده كما لو أننا أطفال خائفون. ونزل أحد القوارب إلى المياه، وسار نحونا فوق سطح البحر مع مجاذيفه الطويلة؛ أربعة ملاحين يضربون المجاذيف المتأرجحة في البحر. كانت تلك هي نظرتي الأولى إلى بحارة الملايو. فلقد عرفتهم منذ ذلك الحين، لكن ما أدهشني عندها هو لامبالاتهم: اقتربوا، وحتى المُجدف الذي يقف ويوافق سلاسلنا مع خطاف الزورق لم يتلطف ويرفع رأسه للحظة. إذ ظننت أن من يتعرضون إلى انفجار يستحقون المزيد من الاهتمام.

رجل صغير، وضعيف مثل رقاقة خشب وخفيف الحركة مثل قرد، تسلق إلى الأعلى، إنه مساعد ربان الباخرة. ألقى نظرة واحدة، وصاح: «يا شباب، من الأفضل أن تغادروا السفينة».

كنا صامتين. تحدث على انفراد مع القبطان لبعض الوقت. وبدا أنه يجادل. وذهبا بعد ذلك معاً إلى الباخرة.

عندما عاد رباننا علمنا أن الباخرة هي «سومرفيل» وقبطانها اسمه «ناش» من غرب أستراليا، ومتوجهة نحو سنغافورة عبر باتافيا حاملة البريد، وحسب الاتفاق يجب أن يسحبوننا إلى أنيبر أو باتافيا إذا كان ممكناً حيث نتمكن من إطفاء الحريق بخرق السفينة ونمضي بعد ذلك في رحلتنا إلى بانكوك! وبدا العجوز متحمساً: «سوف نفعل ذلك الآن» قال لماهن بشراسة. ثم هز قبضته نحو السماء. ولم يقل أي أحد آخر أي كلمة.

عند الظهر بدأت الباخرة بالسحب. ومضت السفينة قدماً نحيلة وعالية، وما تبقى من يهودا مربوط في نهاية السبعين قامة لحبل السحب، إذ تبتعت الباخرة بسرعة مثل سحابة دخان وقمم الصواري بارزة من الأعلى. وتوجهنا إلى مؤخر السفينة للفت الأشرعة. كنا نسعل على الصواري، وحذرين من نهاياتها المتفحمة. تخيلوا؟ الكثير منا هناك، نُلبس أشرعة تلك السفينة المحطمة لفة نظيفة لتصل إلى أي مكان؟ لم يكن هناك أي رجل لم تخطر بباله فكرة أن الصواري ستسقط في أي لحظة. ومن بين أشرعة الصواري لا نستطيع رؤية الباخرة من الدخان، والجميع يعملون بحذر، ويمررون الحشايا بحركات بسيطة. «لُفوا الشراع الرئيس، بين الأشرعة هناك» صاح ما هن من الأسفل.

هل فهتمم هذا؟ لا أظن أن أحداً من أولئك الرجال قد توقع النزول بالطريقة المعتادة. فعندما نزلنا سمعتهم يقولون لبعضهم: «حسناً، لقد ظننت بأننا سننزل إلى البحر بالجملة؛ الدعامات وكل شيء، سأكون الملام إن لم أفعل ذلك». «هذا ما فكرت به أيضاً» رد شخص آخر رث الثياب ومعصوب الرأس بقلق. وتذكروا أن أولئك الرجال لم يكن لديهم السلوك المدرب للطاعة. فبالنسبة لمتفرج سيكونون مجرد أوغاد فاسدين ليس غايتهم الخلاص. إذ ما الذي جعلهم يفعلون ذلك، ما الذي جعلهم يطيعونني، وتأملوا بوعي كم كان ذلك رائعاً، عندما جعلتهم ينزلون الجزء الأوسط من الشراع لمرتين في محاولة لتثبيتته بشكل أفضل؟ ماذا؟ لم يكن لديهم سمعة مهنية، لا أمثلة يقتدون بها ولا إشادة ومديح. إذ لم يفعلوا ذلك بدافع الشعور بالواجب، فكلهم يعرفون جيداً كيفية التملص والتكاسل والمراوغة حين يكون لديهم مزاج لذلك، وغالباً ما يكون لديهم مثل ذلك المزاج. هل إن باونين وعشرة شلنات في الشهر هو ما أرسلهم إلى هنا؟ لأنهم لا يفكرون بأن أجورهم هي نصف ما يستحقونه. لا؛ بل إن ثمة شيئاً في نفوسهم دفعهم إلى ذلك، شيئاً فطرياً وخفياً وأزلياً. لا أقول على نحو قاطع بأن طاقم الملاحين لتجار السفن الفرنسيين أو الألمان سوف لن ينجزوا عملهم، لكنني أشك في ما إذا كانوا سيقومون به بالطريقة نفسها. لأن ثمة كمالاً في أدائهم للعمل، شيء صلب مثل مبدأ، ومتسلط مثل غريزة، كشف شيئاً غامضاً عن ذلك الشيء المخفي، تلك الهبة الخيرة أو الشريرة التي صنعت ذلك الاختلاف العرقي، وشكّلت مصير الأمم.

وحدث أن رأينا الحريق في تلك الليلة عند العاشرة، ولأول مرة منذ أن صارعناه. فسرعة السحب عرّضت الحطام المحترق للهواء. وظهر وميض أزرق يلمع أمامنا أسفل حطام سطح السفينة. تذبذب في بقع صغيرة، وبدا وكأنه اهتز وزحف مثل ضوء يراعة. كنت أول من رآه، وأخبرت ما هن، «أذن بدأت اللعبة من جديد» قال، «من الأفضل أن نوقف هذا السحب، وإلا سوف تنفجر فجأة من الأمام والخلف قبل أن نتمكن من الخروج منها». أطلقنا صيحة؛ أجراس ترن لجذب انتباههم، ولكنهم استمروا في السحب. وأخيراً زحفنا أنا وما هن إلى الأمام وقطعنا الحبل بفأس. إذ لم يكن هناك أي وقت لإرخاء الحبال. ويمكن ملاحظة أعمدة الربط الحمراء وهي تضرب الكم الهائل من القطع الخشبية تحت أقدامنا عندما شققنا طريقنا عائدين إلى مؤخر السفينة.

اكتشفوا بالطبع في وقت قصير جداً في الباخرة أن الحبل قد اختفى. وأطلقت صافرة مدوية، وتحركت أضواؤها في دائرة واسعة، واقتربت إلى جانب السفينة، ثم توقفت. كنا جميعاً في مجموعة متراصة على مؤخر السفينة وننظر إليها. وكل رجل احتفظ بصرة أو حقيبة. ثم قفز فجأة لهب مخروطي مع ذروة متشابكة إلى الأمام وقذف على البحر الأسود دائرة من ضوء، مع قاربين جنباً إلى جنب وارتفع بلطف عند مركزه. القبطان بيرد جلس على حواجز مشبكة ساكناً وصامتاً لساعات، لكنه نهض الآن ببطء وتقدمنا، متوجهاً إلى الحبال المساندة لصاري السفينة الخلفي. نادى القبطان ناش: «تعالوا! انظروا جيداً! لدي حقائب بريد على متن السفينة. سوف أخذكم أنتم وقواربكم إلى سنغافورة».

«شكراً لك! لا!» قال رباننا، «يجب أن نرى نهاية السفينة».

«لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك» صاح الآخر، «البريد، كما تعلم».

«آي! آي! نحن بخير».

«حسناً جداً! سوف أبلغ عنكم في سنغافورة... إلى اللقاء».

لوح بيده. ثم أنزل رجالنا متاعهم بهدوء. وتحركت الباخرة إلى الأمام وخرجت عن دائرة الضوء، وتوارت فوراً عن أنظارنا المبهورة بالنار التي تستعر بقوة. وحينها عرفت أنني سأرى الشرق لأول مرة قائداً لقارب صغير. وفكرت أن هذا لأمر رائع؛ فالولاء للسفينة القديمة رائع. لذا كان يجب أن نرى نهايتها. أوه سحر الشباب! أوه حريقه الأكثر إبهاراً من لهيب السفينة المحترقة، والذي قذف الضوء السحري على الأرض الواسعة، وقفز الآن بجرأة نحو السماء ليكون خاضعاً للزمن، وأكثر قسوة، ووحشية، ومرارة من البحر، ومحاطاً بليل مبهم كمثل لهب حريق السفينة.

حذرنا العجوز بطريقة لطيفة ومرنة بأن ذلك جزء من واجبنا للحفاظ على معدات السفينة من أجل التأمين البحري قدر استطاعتنا. وبناءً على ذلك ذهبنا إلى العمل في مؤخر السفينة فيما مقدمتها تحترق لتمنحنا الكثير من الضوء. وأخرجنا الكثير من القمامة. ما الذي لم ننقذه؟ مقياس ضغط جوي قديم مثبت بكمية غير معقولة من المسامير كلفني حياتي تقريباً: إذ واجهتني دفعة قوية من الدخان ولكنني ابتعدت في الوقت المناسب. وهناك ثمة مؤن متنوعة، وأطوال من الأشرطة، ولفائف حبال، لذا بدا مؤخر السفينة مثل سوق بحري، والقوارب تحركت بتثاقل إلى جانب الحافات العليا للسفينة. سيظن المرء أن العجوز أراد أخذ قدر ما يستطيع من تجربة مهمته الأولى معه. فلقد كان هادئاً جداً، لكن غير متوازن بشكل واضح. هل تصدقون ذلك؟ إذ أراد أخذ مقدار من حبل المرسة والمرسة الصغيرة معه في القارب الطويل. فقلنا: «آي، آي، سيدي» باحترام، وبهدوء سمحنا للشيء أن ينزلق إلى المياه. كما نزل صندوق الأدوية الثقيل بالطريقة نفسها، وحقبتان من القهوة الخضراء، وعلب من الطلاء، تخيلوا، طلاء، والكثير من الأشياء. وأمرت بعد ذلك القوارب

بحماس شديد بتستيفها وتهيئتها استعداداً لمغادرة السفينة في الوقت الذي سيكون ملائماً لنا.

وضعنا كل شيء على الفور، وجهزنا صاري الزورق الطويل لرباننا الذي كان مسؤولاً عنه، ولم أندم على الجلوس لدقيقة. فلقد شعرت بوجهي بارداً، وكل جزء في جسمي يؤلمني كما لو أنه مكسور، وشعرت بكل أضلاعي وكدت أقسم على وجود انحراف في العمود الفقري. ثم ثبتت القوارب بمؤخر السفينة في ظل معتم، ورأيت حولنا من جميع الجهات دائرة البحر مضاءة بالحريق. وارتفع لهبٌ عملاق أمامنا بشكل مستقيم وواضح. واندلع الحريق مع ضجيج يشبه أزيز الأجنحة، وصوت مثل قرقعة الرعد. وصوت فرقة، وانفجارات، وحلق الشرر من قمة اللهب عالياً؛ مثل رجل ولد للمتاعب، ولسفن معطوبة، ولسفن تحترق.

ما أزعجني هو أن مقدمة السفينة تواجه موجة طويلة ومثل تلك الرياح هناك - مجرد نسمة - والقوارب لن تبقى في مؤخر السفينة حيث كانت آمنة، لكنها ما زالت هناك بإصرار، وبعناد تتميز به القوارب، وذلك بأن تنزل تحت سطح مؤخر السفينة وتتأرجح بعد ذلك على جانبها. خبطت القوارب ما حولها بشكل خطير واقتربت من اللهب، بينما تواصلت السفينة السير ببطء إلى جانبها، وهناك دائماً بطبيعة الحال خطر سقوط الصواري على الجانب في أي لحظة. وأنا مع اثنين من المجدفين أبقينا القوارب بعيدة قدر استطاعتنا بواسطة المجاديف وخطاف القوارب. لكن استمرار ذلك أصبح مستفزاً، إذ لم يكن هناك أي سبب يمنع مغادرة السفينة فوراً. كما لا يمكننا رؤية الباقيين على متن السفينة، ولا نستطيع تصور ما سبب التأخير. المجدفان كانا يشتمان ببلاهة، وأنا لم أقم بنصيبي من العمل فحسب، بل واعتنيت بالرجلين اللذين أظهرنا ميلاً لإلقاء أنفسهما والسماح للأمر أن تتفاقم.

صحت أخيراً: «أنتم الذين على سطح السفينة» ونظر شخص من هناك، «نحن هنا مستعدون» قلت. ثم اختفى الرأس، وبعد برهة ظهر بسرعة مرة أخرى: «يقول القبطان، حسناً، سيدي، وأبقوا القوارب بعيدة عن السفينة».

مرت نصف ساعة. وفجأة حدثت ضجة مخيفة، جلجلة، قعقعة سلسلة، هسهسة مياه، وطارت ملايين من الشرر في عمود مرتعش من الدخان يميل قليلاً فوق السفينة. واحتترقت رُجمة السفينة تماماً، ومرساتان متقدتان نزلتا إلى القاع، واقتلعت بعدها سلسلة متقدة من منتهي قامته. ثم ارتعدت السفينة، وتمايلت كتلة من اللهب كما لو كان ذلك استعداداً للانهيأ، وسقط الجزء العلوي للصاري الأمامي، مندفعاً إلى الأسفل مثل سهم من نار رمي تحت سطح الماء، وقفز فوراً بمقدار طول مجداف القوارب، وطفى بهدوء؛ أسود جداً على البحر المضيء. ناديت الرجال على سطح السفينة مرة أخرى. وبعد مرور بعض الوقت أبلغني رجل بنبرة مرحة غير متوقعة ولكنها مكتومة أيضاً، كما لو أنه حاول التحدث وفمه مغلق: «قادمون فوراً، سيدي» واختفى. ولفترة طويلة لم أسمع شيئاً سوى أزيز وزفير النار. وكذلك أصوات صفير. ثم قفزت القوارب، وسُحبت حبال توثيق الزوارق بقوة،

وسحبت بعضها البعض على نحو هزلي، وطرقت جوانب بعضها البعض، أو فعلنا ما يجب فعله: التآرجح في تجمع إلى جانب السفينة. ولم أستطع الوقوف لمدة أطول، فتسلقت الحبل، تسلقت بجهد إلى متن السفينة فوق المؤخر.

كان الليل مثل نهار مشرق. وما حدث بعد ذلك كان على النحو التالي: واجهني شرع محترق؛ مشهد مرعب، وبدت الحرارة بالكاد ممكن احتمالها لأول وهلة. وعلى وسادة مقعد تم سحبها من المقصورة، وضع القبطان بيرد ساقيه وذراعاً واحدة تحت رأسه، نائماً والضوء يداعبه. أتعرفون بما انشغل الباقون؟ كانوا يجلسون على سطح السفينة في المؤخر حول صندوق مفتوح، ويأكلون الخبز والجبن ويشربون قناني الجعة.

في خلفية النيران التوت أسنة رهيبة فوق رؤوسهم وبدوا مثل سمندرات، كما لو أنهم عصابة من القراصنة اليائسين. والنار تالأت في بياض عيونهم، ولمعت على بقع جلد أبيض كشفته قمصانهم الممزقة. وكل واحد منهم لديه ندوب كما لو أن معركة دارت على مقربة منه، ورؤوسهم معصوبة، وأذرعهم مربوطة، وشريط من خرقة قذرة حول ركبة أحدهم، وكل رجل لديه زجاجة بين ساقيه وقطعة من الجبن في يده. نهض ماهن مع رأسه الضخم والقذر، ومظهره الجانبي المعقوف، ولحيته الطويلة البيضاء، وزجاجة مفتوحة في يده؛ يشبه لص من لصوص البحر المتهورين القدامى الذين يصنعون الفرح وسط العنف والكوارث، «الوجبة الأخيرة على ظهر السفينة» وضح بجدية، «لم نأكل أي شيء طوال اليوم، ولا جدوى من ترك كل هذا». لَوَّح بالزجاجة وأشار إلى الربان النائم. «قال إنه لا يستطيع ابتلاع أي شيء، لذا نصحته أن يستريح» استمر، وعندما حدثت به، قال: «لا أعلم ما إذا كنت على بينة، زميلي الشاب، الرجل لم ينم منذ أيام، وسيكون النوم قليلاً في القوارب». «لن يكون هناك قوارب عما قريب إذا هرجت لفترة أطول» قلت بغضب. ومشيت نحو الربان وهزرتة من كتفه. أخيراً فتح عينيه لكنه لم يتحرك. «حان الوقت لمغادرة السفينة، سيدي» قلت بهدوء.

نهض وهو يتألم، ونظر إلى النيران، وإلى البحر المتلألئ حول السفينة، والأسود؛ الأسود مثل حبر في مكان أبعد، ونظر إلى النجوم التي تسطع خافتة من خلال ستار رقيق من الدخان في سماء سوداء، سوداء مثل أيريبيوس¹⁵.

«الأصغر سناً، أولاً».

والبهار العادي، مسح فمه بظهر كفه، نهض، وتسلق الدرايزين حول مؤخر السفينة واختفى. وتبعه الآخرون. أحدهم كان على وشك النزول، لكنه توقف قليلاً ليشرب ما تبقى في زجاجته، ومع أرجحة كبيرة لذراعه، قذف الزجاجة في النار. وصرخ: «خذ هذا!».

أيريبيوس (Erebus): يمثل أيريبيوس في الميثولوجيا الإغريقية ظلام العالم السفلي.
(الترجمة)

تباطأ القبطان على نحو بائس، وتركناه وحده يناجي مهمته الأولى لبعض الوقت. صعدت مرة أخرى وأحضرتة أخيراً. فلقد حان الوقت. إذ إن الحديد على مؤخر السفينة أصبح ساخناً جداً للمس.

وانقطع بعد ذلك حبل توثيق القارب الطويل، وانجرفت القوارب الثلاثة المربوطة مع بعضها بعيداً عن السفينة. فلقد مرت ست عشرة ساعة فقط على الانفجار منذ أن غادرناها. وماهن هو المسؤول عن القارب الثاني، وأنا عن الأصغر؛ قارب طوله أربعة عشر قدماً. حمل القارب الطويل الكثير منا، لكن القبطان قال إن علينا حماية الممتلكات قدر استطاعتنا، من أجل الضامين، وهكذا نجحت في مهمتي الأولى؛ فهناك رجلان معي، وحقيبة من البسكوت، وبضع علب من اللحم، وبرميل ماء صغير. وأمرت أن أبقى قريباً من القارب الطويل، فإذا ساء الطقس يمكننا الانتقال إليه.

أتعرفون بما كنت أفكر؟ فكرت في أن أنفصل عن المجموعة في أقرب وقت ممكن. إذ أردت أن تكون مهمتي الأولى لي وحدي. ولم أكن لأذهب للإبحار في سرب إذا وجدت فرصة لرحلة بحرية مستقلة. إذ أردت الوصول إلى البر بنفسي. وأردت التفوق على القوارب الأخرى. إنه الشباب! الشباب بكل ما تعنيه الكلمة! الشباب السخيف، الساحر، الجميل.

لكننا لم ننطلق فوراً. إذ ينبغي علينا مشاهدة نهاية السفينة. وهكذا أبحرت القوارب على مقربة منها تلك الليلة مرتفعة ومستقرة على الموجة. والرجال غلبهم النعاس، واستيقظوا، وتهدوا، وتذمروا. وأنا أراقب احتراق السفينة.

بين ظلمات السماء والأرض احترقت السفينة على نحو عنيف جداً فوق قرص من بحر أرجواني ناتج عن عرض الومضات الحمراء القانية، فوق قرص من المياه المتلألئة والمنحوسة. ولهب عال، وواضح، لهب هائل ووحيد يرتفع من المحيط، ومن ذروته يتدفق الدخان الأسود باستمرار نحو السماء. والسفينة تحترق على نحو غاضب وحزين ومهيب مثل محرقة جثت أضرمت فيها النار ليلاً، يحيطه البحر وتحرسه النجوم. فلقد جاء الموت العظيم مثل نعمة، أو مثل هدية، أو مثل مكافأة لتلك السفينة القديمة في نهاية أيامها الشاقة. استسلام شبحها المتعب لعناية النجوم والبحر كان مؤثراً مثل مشهد نصر عظيم. سقطت الصواري قبل حلول الفجر، وحدث لوهلة انفجار واضطراب من شرر من نار متصاعدة بدا أنه قد أشبع صبر الليل ويقظته؛ الليل الشاسع المستلقي بصمت فوق البحر. وعند الفجر لم تعد سوى هيكل متفحم يطفو ساكناً تحت سحابة من دخان ويحمل كتلة متوهجة من الفحم داخله.

وبعدئذ أخرجنا المجاديف، وتجمعت القوارب في خط تحرك حول بقايا السفينة كما لو أنها في موكب بقيادة القارب الطويل. وكما لو أننا اقتلنا من جانب المؤخر رمحاً رفيعاً من النار أطلق علينا بشراسة، وفجأة نزلت مقدمتها أولاً مع هسهسة عظيمة للبخار. والمؤخر غير المستهلك كان آخر جزء غرق من السفينة. لكن الطلاء اختفى، وتكسر، وتفتش، ولم يعد هناك حروف، ولم يعد هناك كلمة، ولم يعد هناك أي شعار عنيد يشبه روحها، ليضيء عند شروق الشمس اسمها وعقيدتها.

شقنا طريقنا نحو الشمال. وزادت سرعة الريح، وعند الظهيرة تقريباً اقتربت القوارب جميعها من بعضها للمرة الأخيرة. لم يكن لدي صار أو شرع في قاربي، لكنني صنعت صارياً من مجداف احتياطي ورفعت مظلة القارب عوضاً عن الشرع، مع خطاف القارب عوضاً عن عارضة الشرع، وأصبح بالتأكيد مثل سفينة مزودة بشرعيتين، لكنني شعرت بارتياح عند معرفة أنني بمساعدة الريح في الخلف يمكنني التغلب على القاربين الآخرين. انتظرتهم. وبعد أن اطلعنا جميعاً على خريطة القبطان وتناولنا وجبة مؤنسة من الخبز الجاف والماء تلقينا تعليماتنا الأخيرة. وهي تعليمات بسيطة: التوجه شمالاً والبقاء معاً قدر المستطاع. «كونوا حريصين في استخدام العدة المؤقتة، مارلو» قال القبطان، وماهن، عندما أبحرت فخوراً ماراً بقاربه، جعد أنفه المقوس وصاح، «ستبحر بقاربك هذا تحت الماء إذا لم تنتبه أيها الزميل الشاب» إنه عجوز خبيث، وربما البحر العميق حيث يرقد الآن يهزه بلطف، يهزه بحنان حتى يوم القيامة!.

قبل الغروب هبت عاصفة مطرية كثيفة على القاربين، وكان مؤخرهما بعيدين، وذلك آخر شيء أراه منهما لبعض الوقت. وبقيت في اليوم التالي أوجه قاربي الصغير، مهمتي الأولى، ولا شيء سوى الماء والسماء من حولي. وعندما بعد الظهر رأيت الأشرعة العليا لسفينة بعيدة جداً، لكنني لم أخبر أحداً بذلك والرجلان معي لم يلاحظاها. وكما ترون، فلقد خشيت من أنها قد تكون في الطريق إلى الوطن ولم يكن لدي أي رغبة في الإدبار عن مداخل الشرق. فلقد كنت متوجهاً نحو جاوا، اسم مبارك آخر، مثل بانكوك، كما تعلمون. لذا قُدت القارب لعدة أيام.

لست بحاجة إلى أن أقول ماذا يعني أن تجول في قارب مفتوح. أتذكر ليالي وأياماً من الهدوء ونحن نجدف ونجدف والقارب بدا كما لو يقف ساكناً في مكانه، أو كما لو كان مسحوراً داخل دائرة أفق البحر. وأتذكر الحر، وسيل العواصف المطرية التي جعلتنا نواصل تفريغ القارب من المياه من أجل البقاء على قيد الحياة (لكنها ملأت براميلنا بالماء)، وأتذكر ست عشرة ساعة مستمرة مع فم جاف مثل رماد ومجداف التوجيه على المؤخر لكي أبقى مهمتي الأولى تحت السيطرة في بحر سحيق. ولم أكن أعرف أنني رجل سليم البنية حتى ذلك الوقت. أتذكر الرجلان معي مع وجهان متشنجان، وجسدين متعبين، وأتذكر شبابي والشعور بأني لن أرجع مطلقاً، والشعور بأني أستطيع الاستمرار إلى الأبد، وبأني أكثر صموداً من البحر، والأرض، وكل الرجال، إنه الشعور الخادع الذي أغوانا للفرح وللمخاطر

وللحب ولبذل جهد دون جدوى، وللموت. والإيمان الراسخ بالقوة ووهج الحياة في حفنة من التراب والوهج في القلب الذي يزداد خفوياً كل عام، ويزداد برودة، ويزداد صغراً، ويخمد، ويخمد مبكراً، مبكراً جداً، حتى قبل أن تخمد الحياة نفسها.

وهكذا رأيت الشرق. رأيت أماكنه السرية واظلمت على روحه الحقيقية، لكنني أراه الآن دائماً من خلال قارب صغير: قمم جبال عالية زرقاء وبعيدة في الصباح مثل ضباب خفيف وقت الظهيرة، وجدار أرجواني مسنن عند غروب الشمس. أشعر بالمجداف في يدي، ومنظر البحر الأزرق الحارق في عيني. ورأيت الخليج؛ خليجاً واسعاً رقيقاً مثل زجاج مصقول، أو مثل جليد يتلألأ في الظلام. وضوءاً أحمر يحترق بعيداً فوق ظلام اليابسة والليل ناعم ودافئ. ونحن نجر المجاديف بأذرع تتألم، هبت فجأة نفخة من ريح؛ نفخة خفيفة وفاترة ومحملة بروائح غريبة لأزهار ولخشب عطري، انبعثت في الليل الساكن، إنه التنهد الأول للشرق على وجهي. لن أنسى ذلك أبداً. إنه غير محسوس وأستعجابي، مثل سحر، مثل وعد مهموس بمتعة غامضة.

جدفنا بالتناوب في تلك المرحلة الختامية لإحدى عشرة ساعة؛ اثنان يجدفان، والثالث يأخذ قسطاً من الراحة في الخلف. فلقد لاحظنا الضوء الأحمر في ذلك الخليج وتوجهنا إليه، خمننا أنه يجب أن يكون شارة لميناء ساحلي صغير. اجتزنا قاربين غريبين بمؤخر عال، ملاحوها ينامون فيهما عند المرساة، وبالاقتراب من الضوء، الذي بدا الآن خافتاً جداً، اصطدم أنف القارب بحافة رصيف الميناء البارز. فلقد كنا عمياناً بسبب الإعياء. ترك الرجلان معي المجاديف وسقطا على مقعديهما كما لو كانا ميتين. ربطت القارب بركام. وتموج تيار بنعومة. الغموض العبق للشاطئ مجمع في كتل هائلة من كثافة أجسام ضخمة لنباتات، ربما، وبأشكال رائعة وصامتة. وعند سفحها يلمع النصف دائرة من الشاطئ لمعاناً خفيفاً مثل صورة خادعة. ولم يكن هناك ضوء ولا ضجة ولا صوت. فلقد واجهني الشرق الغامض، معطر مثل زهرة، وصامت مثل الموت، ومظلم مثل قبر.

وأنا جلست مرهقاً بشكل يفوق التعبير، ومبتهجاً مثل منتصر، وأرقاً ومدوّخاً كما لو أنني أمام أحجية معقدة، ومميتة.

الرداذ الذي سببته المجاديف، والانغمار المحسوب المدوي على سطح الماء، اشتد بسبب هدوء الشاطئ إلى تصفيق عال دفعني للقفز. فثمة قارب، قارب أوروبي كان قادماً. ناشدت اسم الميتة، ناديتها: يهودا أهوي! فأجابني صيحة رقيقة.

إنه القبطان. لقد سبقت قارب القيادة بثلاث ساعات. وكنت مسروراً لسماع صوت العجوز يرتجف مرهقاً. «هذا أنت، مارلو؟». «انتبه لحافة ذلك الرصيف، سيدي» صرخت.

اقترب بحذر، وقاس عمق البحر بحبل المسبار الذي احتفظنا به من أجل التأمين البحري. فككت حبل التوثيق قليلاً وسقط إلى جانب القارب. جلس القبطان؛ جسداً متكسراً على

مؤخر القارب، مبللاً بالنداوة ويدها مشبوكتان في حضنه. ورجاله قد ناموا بالفعل. «كانت فترة عصبية بالنسبة لي» همس. «ماهن في الخلف، ليس بعيداً جداً». تحدثنا بهمس، همس خفيف، كما لو كنا نخشى استيقاظ اليابسة. إذ إن إطلاق النار والرعد والزلازل لن يوقظ الرجال في تلك اللحظة.

كنا ننظر حولنا ونحن نتحدث، ورأيتُ بعيداً في البحر ضوءاً ساطعاً يطوف في الظلام. «هناك باخرة تعبر الخليج» قلت. لم تعبره، بل دخلت فيه، وحتى إنها اقتربت ورست. «أتمنى» قال العجوز، «عليك أن تعرف إن كانت باخرة إنجليزية. ربما يمكنهم أن يقدموا لنا رحلة بحرية إلى مكان ما» بدا قلقاً وعصبياً. وبفضل اللكم والركل أيقظت أحد الرجلين في حالة سرنمة، وأعطيته مجدافاً وأخذت الثاني وجدفنا باتجاه أضواء السفينة.

سمعنا همس أصوات فيها، ورنين التجويف المعدني لغرفة المحرك، ووقع أقدام على سطح الباخرة. نوافذها مضيئة، ومستديرة مثل عيون واسعة. وأجسام تتحرك هنا وهناك، وفي الأعلى سمع رجل مضل في حجرة قيادة الباخرة صوت المجاديف.

ومن ثم، وقبل أن أفتح فمي، خاطبني الشرق لكن بصوت غربي؛ (إذ) تدفق سيل من الكلمات في صمت مبهم ومميت، كلمات غاضبة، وغريبة، وممزوجة بكلمات وحتى عبارات إنجليزية سليمة أقل غرابة لكنها مفاجئة بشكل أكبر. والصوت أقسم ولعن بعدوانية، خرّق السلام المهيّب للخليج بوابل من الشتائم، بدأها بأن نعتني بالخنزير، وتصاعدت الشتائم بعد ذلك تدريجياً إلى نعوت لا يصح ذكرها باللغة الإنجليزية. إذ إن الرجل هناك استشاط غضباً وتحدث بلغتين بصوت عال، ومع صدق في غضبه أقنعتني تقريباً بطريقة أو بأخرى بأني مذبذب بحق توافق الكون. تمكنت من رؤيته بصعوبة، لكني بدأت أفكر بأنه سوف يتسبب في إيذاء نفسه.

توقف فجأة، وسمعته ينخر وينفخ مثل خنزير البحر. قلت ...

«ما هذه الباخرة، رجاء؟»

«إيه؟ ما هذا؟ ومن أنت؟»

«بحارة سفينة إنجليزية احترقت في البحر. ووصلنا الليلة إلى هنا. أنا مساعد القبطان. القبطان في القارب الطويل ونريد أن نعرف ما إذا كنتم ستوصلونا إلى مكان ما.»

«أوه، يا إلهي!... تلك الكائن السماوي من سنغافورة في رحلة عودتها. سوف أرتب الأمر مع قبطانك في الصباح،... و... هل سمعتني الآن؟»

«أظن أن كل الخليج قد سمعك.»

«ظننت أنك في القارب عند الشاطئ. الآن، أسمع، هذا الكسول اللعين وغد القبطان ذهب إلى النوم ثانية، اللعنة عليه. انطفأ الضوء وأنا أسرع بحماقة إلى حافة هذا الرصيف اللعين. وهذه هي المرة الثالثة التي يلعب فيها معي هذه اللعبة الماكرة. الآن أسألك، هل يمكن لأي أحد تحمل مثل هذه الأشياء؟ إنها كافية لجعل أي رجل يفقد عقله. سأبلغه، سأذهب إلى المساعد المقيم وأسلمه الحقيبة، عن طريق... أتري! ليس هناك ضوء. إنه مطفأ، أليس كذلك؟ سأخذك لتشهد انطفاء الضوء. يجب أن يكون هناك ضوء، كما تعرف. ضوء أحمر على...».

«كان هناك ضوء» قلت له بلطف.

«لكنه مطفأ، يا رجل! ما فائدة الكلام بهذه الطريقة؟ يمكنك أن ترى بنفسك أنه مطفأ، ألا ترى؟ إذا اخترت الإبحار بهذه الباخرة الثمينة إلى هذا الساحل المهجور فسوف تحتاج إلى ضوء أيضاً. سأركله حتى نهاية رصيفه البائس. سوف ترى أنني سأفعل. سوف...».

«لذا هل أخبر قبطاني بأنكم ستأخذوننا معكم؟» قاطعته.

«نعم، سأخذكم معي. تصبحون على خير» قال بفضافة.

جدفت عائداً، وأسرعت مجدداً إلى المرسى، ونمت بعد ذلك أخيراً. واجهت صمت الشرق. وسمعت بعضاً من لغاته. لكن عندما فتحت عيني مرة أخرى كان الصمت تاماً كما لو أنه لم ينتهك من قبل. واضطجعت في فيض من ضوء، وسماء لم تبدُ بذلك البعد من قبل؛ فلقد بدت عالية جداً. وفتحت عيني، مضطجعاً دون حراك.

ورأيتُ بعد ذلك رجال الشرق، والمرسى على طوله كان مليئاً بالناس. ورأيتُ وجوهاً سمراء، وبرونزية، وصفراء، والعيون السوداء، والبريق؛ لون الازدحام الشرقي. وكل تلك الكائنات تحرق دون تدمر، دون تأوه، دون حركة. يحدقون في القوارب، وفي الرجال النائمين الذين جاؤوا إليهم من البحر ليلاً. ولا شيء يتحرك؛ سعف النخيل ساكن بلا حراك تحت السماء، ولم يهتز فرع شجرة على طول الشاطئ، والسطوح البنية للمنازل المستترة تختلس النظر من بين أوراق الشجر الكبيرة، ومن بين الأوراق الكبيرة المتدلية اللامعة والتي ما زالت تبدو مثل أوراق مزيفة من معدن ثقيل. كان ذلك هو شرق الملاحين القدامى، قديم جداً، وغامض جداً، ولامع وداكن، ومفعم بالحياة ولا يتغير، مليء بالمخاطر والوعود. وهؤلاء هم الرجال. جلست فجأة. إذمرت موجة حركية خلال جمع من الناس من أقصاه إلى أقصاه، مرت على كل الرؤوس، وتمايلت الأجساد، ومرت على طول المرسى مثل موجة صغيرة على الماء، أو مثل نسمة ريح مرت بحقل، ثم سكن كل شيء مرة أخرى. أراه الآن: الامتداد الواسع للخليج، والرمال المتلألئة، والثروة الخضراء اللانهائية والمتنوعة، وزرقة البحر وكأنه بحر في حلم، وحشد الوجوه المجاملة، وتألُق الألوان الزاهية، عكسها الماء كلها، ومنحنى الشاطئ، والمرسى، والمراكب الغريبة ذات المؤخر العالي ما زالت عائمة،

والقوارب الثلاثة مع الرجال المتعبين من الغرب ينامون غير مدركين لليابسة والناس وشدة أشعة الشمس. إذ ينامون ملقّين على مقاعدهم، وأجسادهم ملتفة على أرضية القوارب، في أوضاع لا تبالي بالموت. ورأس القبطان العجوز الذي يتكى على مؤخر القارب الطويل سقط على صدره، وبدا كما لو أنه لن يستيقظ أبداً. وأبعد من ذلك وجه ماهن العجوز المقلوب نحو السماء، مع لحيته البيضاء الطويلة المفروشة على صدره، كما لو أطلق النار عليه عندما كان يجلس على ذراع الدفة، ورجل متكوم في الجزء الأمامي من القارب، ينام وذراعه تحضان الجزء البارز من المقدمة وخده على شفير القارب. والشرق ينظر إليهم دون صوت.

لقد عرفت سحره منذ أن رأيت الشواطئ الغامضة، والماء الساكن، وأراضي البلاد السمراء، كما لو أن نمسيس¹⁶ الخفي يتموضع في انتظار الاتباع، مجتازاً عدداً كبيراً من الأعراق المقهورة الذين يفخرون بحكمتهم ومعرفتهم وقدرتهم. لكن كل الشرق بالنسبة لي كان يكمن في ذلك التصور من شبابي. كله في تلك اللحظة، حين فتحت عيني الشابتين عليه. فلقد جئت إليه بعد صراع مع البحر، وكنت شاباً، ورأيتته ينظر إليّ. وهذا هو كل ما تبقى منه! مجرد لحظة؛ لحظة من القوة، والرومانسية، والبريق، والشباب!... ومع صفة خفيفة من أشعة الشمس على شاطئ غريب، آن وقت التذكر، وتنفس الصعداء - ووداعاً، أيها الليل ووداعاً»

شرب من الزجاج.

«آه! الماضي الجميل، الماضي الجميل. والشباب والبحر. والبريق والبحر! البحر الجميل، والقوي، والملح، والبحر المر الذي يمكنه أن يهمس إليك ويهدر ويحبس أنفاسك»

شرب مرة أخرى.

«إلى جانب كل تلك الروعة، البحر، كما أظن، البحر نفسه، أم إنه الشباب وحده؟ من يدري؟ لكن أنتم هنا، أنتم جميعاً حصلتتم على شيء من الحياة: المال، الحب، أيّاً كان ما يحصل عليه المرء على الشاطئ، لذا أخبروني، ألم يكن ذلك الزمن هو الزمن المناسب، ذلك الزمن عندما كنا شباباً في البحر، شباباً ولا نملك شيئاً، في البحر الذي لا يمنحك أي شيء سوى المحن القاسية، وأحياناً فرصة لتشعر بقوتك فحسب، إذن على ماذا تدمون جميعاً؟»

نكسنا رؤوسنا له؛ رجل المال، ورجل الحسابات، ورجل القانون، نكسنا رؤوسنا جميعاً له فوق الطاولة المصقولة التي تشبه لوحاً ساكناً من المياه البنية التي تعكس وجوهنا، المخططة، والمجعدة، إذ يظهر جلياً على وجوهنا الإجهاد، والمكر، والنجاح، والحب، وعيوننا المرهقة تنظر بلا حركة، تنظر دائماً، تنظر بلهفة إلى شيء بعيد عن الحياة، وبينما

نرتقبه، يكون قد غادر بالفعل، مر خفياً، في تنهيدة، في ومضة، مع الشباب، مع القوة، مع رومانسية الأوهام».

نمسيس (Nemesis): إلهة حارسة لمصير الأشياء، وحامية للآلهة من الرذائل. (المترجمة)

ذكرى كارين

1

عرفناه في تلك الأيام غير الآمنة عندما أردنا الحفاظ على حياتنا وممتلكاتنا. لا أحد منا، كما أظن، لديه أي شيء من ممتلكاته الآن، وسمعت أن كثيرين قد فقدوا حياتهم بلا مبالاة، لكنني متأكد من أن القليلين الذين على قيد الحياة ليسوا ضعيفي البصر ليفوتوا، في خضم الاحترام المضرب تجاه صحفهم، فرصة فهم التطورات المحلية المختلفة في أرخبيل الشرقية. إذ إن نور الشمس يلمع بين سطور تلك المقاطع القصيرة عنها في الصحف؛ نور الشمس وبريق البحر. واسم غريب أيقظ الذكريات، وفاحت من الكلمات المطبوعة رائحة دخان اليوم، مع عطر رقيق ونافذ كما لو أن نسائم الأرض تهب عبر ضوء نجوم الليالي الماضية: بريق إشارة حريق مثل جوهرة على قمة المنحدر الصخري الموحد، والأشجار الضخمة، والحراس الماهرين للغابات الهائلة، يقفون يقظين وهم أكثر يقظة عند مساحات المياه المفتوحة النائمة، وصف من الزبد الأبيض يندفع نحو شاطئ فارغ، وزبد المياه الضحلة على الصخور، والجزر الخضراء الصغيرة متناثرة خلال هدوء الظهيرة على مستوى سطح بحر لامع، مثل حفنة من الزمرد نُثرت على ترس من الفولاذ.

وثمة وجوه أيضاً؛ وجوه كثيبة، عدوانية ومبتسمة، ووجوه جريئة وصريحة لرجال حفاة، ومسلحين كما ينبغي وصامتين. زحموا المدى الضيق لسطوح مراكبنا الشراعية بحشدهم المزين والهمجي، وهم يرتدون عباءات ملونة بألوان مختلفة، وعمائم حمراء، وستر بيضاء مطرزة، مع بريق الأغمد، وخواتم من الذهب، وحلي، وأساور في أعلى الذراع، وأنصال حراب، ومقابض أسلحتهم مرصعة بالجواهر. ولديهم مشية مستقلة، وعيون حازمة، وسلوك منضبط، ويبدو كما لو أننا نسمع أصواتهم الناعمة الآن وهم يتحدثون عن المعارك، والسفر، والهروب، ويتباهون برباطة جأش، ويمزحون بهدوء، وأحياناً يمجدون بهمهمة مهذبة شجاعتنا، وكرمنا أو يحتفون بمناقب حاكمهم بكل حماس وإخلاص. نتذكر الوجوه، والعيون، والأصوات، ونرى بريق الحرير والمعدن مرة أخرى، والضجة التي يحدثها ذلك الجمع البراق، الاحتفالي والعسكري، وكما لو أننا نشعر بلمسة أياد ودية سمراء تعود لتستقر على مقبض سيف منقوش بعد مصافحة قصيرة. أولئك هم أتباع كارين، أتباعه المخلصين الذين تعتمد تحركاتهم على ما تقوله شفتيه، ويقرؤون أفكاره في عينيه. إذ همهم لهم بكلام عن الحياة والموت بلا مبالاة، وهم تقبلوا كلماته باحترام، مثل نعم القدر. ورغم أن جميعهم أحراراً، إلا أنهم عندما يتحدثون إليه يقولون: «عبدك». وعلى طريقه تموت الأصوات كما لو أنه يمشي محروساً بالصمت. ويتبعه همس مهيب. يدعونه بزعيم الحرب. وكان يحكم ثلاث قرى تقع في سهل ضيق. فهو سيد موطاً قدم متواضع على الأرض، موطاً قدم محتل يشكل ما يشبه القمر في بداية ظهوره؛ مكان مهمل بين التلال والبحر.

ومن على سطح مركبنا الشراعي الذي رسا في وسط الخليج، أشار بحركة مسح مصطنعة بذراعه على طول المعالم المتعرجة لتلال مملكته بأكملها، وبدا بتلك الحركة المسهبة كما لو أنه قد أبعده حدوده، أو مدها فجأة إلى شيء هائل جداً وغامض حتى بدت لوهلة أن لا شيء يحدها سوى السماء. وفي الواقع، وبالنظر إلى ذلك المكان غير الساحلي من البحر والمعزول عن اليابسة من جانب المنحدرات الوعرة من الجبال، كان من الصعب تصديق وجود أي حي مأهول بالسكان هناك. إذ لم يكن المكان معروفاً تماماً، ويحفل بحياة تتواصل خلسة مع تأثير مقلق من العزلة، وبحياة تبدو فارغة لأسباب مجهولة من أي شيء يحرك فكرة تلامس القلب، أو تقدم لمحة عن التعاقب المنحوس للأيام. ظهرت لنا كأرض دون ذكريات، وندم وأمنيات، أرض حيث لا شيء يمكن أن يبقى فيها حياً عند حلول الليل، وحيث كل شروق للشمس يشبه فعلاً مبهرًا لخلق خاص منفصل عن المساء واليوم التالي.

مرر يده فوقها. «كلها لي!» ثم ضرب سطح المركب الشراعي بعصاه الطويلة ذات الرأس الذهبي الذي يلمع مثل نيزك، ويقف خلفه تماماً تابع عجوز صامت يرتدي سترة سوداء مطرزة بشكل مبالغ فيه؛ التابع الوحيد من بين كل الملايويون حوله الذي لم يمتثل للإيماءة المتسلطة بنظرة. حتى إنه لم يرفع جفنيه. حتى رأسه خلف سيده، ورفع سيفه الطويل الموضوع في غمد فضي على كتفه الأيمن دون إثارة. إنه يقف هناك لأداء واجبه لكن دون فضول، وبدا مرهقاً، ليس بسبب الشيخوخة، بل لامتلاك سر الوجود المرهق. وكارين القوي والفخور، يقف بغطرسة ويتنفس بهدوء. تلك هي زيارتنا الأولى، وكنا ننظر حولنا بفضول شديد.

يشبه الخليج حفرة عميقة جداً من الضوء المكثف. أو طبقة دائرية رقيقة من الماء تعكس سماءً مضيئة. والشواطئ القريبة منه شكلت حلقة معتمة من الأرض تطفو في فراغ من الأزرق الشفاف. وتظهر التلال الأرجوانية والقاحلة بصعوبة على السماء؛ إذ بدت قممها وكأنها تتلاشى في رعشة ملونة من بخار متصاعد، وجوانبها المنحدرة مخططة باللون الأخضر للوديان الضيقة، وعند سفحها حقول الأرز، والموز المبقع، والرمال الصفراء. وتيار جارف ملتف حولها مثل خيط منسدل. ومجموعة من أشجار الفاكهة تحدد القرى، وأشجار نخيل رفيعة منكسة رؤوسها معاً فوق المنازل المنخفضة، وسطوح من السعف الجاف تلمع من بعيد؛ مثل سطوح من ذهب، وخلف أروقة مظلمة من جذوع الأشجار، تمر قامات وتختفي بحيوية، ودخان النار يتصاعد بشكل عمودي فوق مجموعات من الشجيرات المزهرة، وحوارج من الخيزران تلمع، تمتد بعيداً في خطوط متقطعة بين الحقول. وصوت بكاء مفاجئ على الشاطئ بدأ حزينا من بعيد، وتوقف فجأة، كما لو أنه أخطأ عند انهيار أشعة الشمس. وهبة من النسيم أحدثت ومضة في الظلام على المياه الرائقة، ولامست وجوهنا، وأصبحت في طي النسيان. لم يتحرك أي شيء. وانحسر توهج الشمس حتى تحولت إلى تجويف بلا ظلال من الألوان والسكون.

إنها المنصة، حيث يرتدي ملابس رائعة للمشاركة، ويمشى متبختراً، ومبجلاً بشكل لا يضاهاى، ويجعل الحدث مهماً عن طريق قدرته على إيقاظ توقع سخيف عن شيء بطولي سوف يحدث - مع وابل من الحركات أو الأغاني - للون المتذبذب لأشعة الشمس الرائعة. كان كلامه منمقاً ومثيراً للقلق، لأن لا يمكن لأي أحد أن يتصور مدى عمق الخواء الرهيب لمثل تلك الواجهة المنمقة الجديرة بالتوازي. لم يكن مُقنَّعاً، فهناك الكثير جداً من الحيوانات في داخله، والقناع ليس سوى شيء ميت، لكنه قدم نفسه على أنه ممثل في الأساس، إنسان مقنَّع بعدوانية. إذ إن أصغر أفعاله كان مُعداً مسبقاً وغير متوقع، وخطابه خطير، وجمله تنذر بالنحس مثل إشارات خفية ومعقدة أو مثل زخرفة عربية. عُومل باحترام رسمي لا يُمنح في الغرب غير الموقر إلا لملوك العصر، وكان يتقبل الاحترام العميق بوقار وتأيب لا تراه في أي مكان آخر سوى خلف أضواء المسرح وفي الكذب المُكثف حول بعض الأوضاع المأساوية الفظيعة. كما من المستحيل تذكر من هو تقريباً، ما نذكره فقط هو أنه زعيم بسيط لزاوية معزولة مريحة في مينداناو حيث يمكننا بأمان نسبي كسر القانون ضد الاتجار بالأسلحة النارية والذخيرة مع المواطنين. ما كان يجب أن يحدث هو أن أحد السفن الحربية الإسبانية المحتضرة تُحفز فجأة إلى شعلة من حياة نشطة ولا تشكل خطراً علينا، إذ ما إن دخلنا الخليج، حتى ظهرت لنا بعيدة تماماً عن تطفل البشر، وإلى جانب ذلك، كنا خيالبيين في تلك الأيام بشكل كافٍ للنظر بنوع من رباطة الجأش والسعادة لأي فرصة متاحة بطمأنينة في مكان ما خارج مسار الاعتراض الدبلوماسي. وكذلك هو الحال مع كارين، لا شيء يمكن أن يحدث له ما لم يحدث للجميع، سواء الفشل أو الموت، لكن طبيعته تظهر مكسوة بوهم نجاح حتمي. بدا مؤثراً جداً، وضرورياً جداً هناك، وأكثر من ذلك؛ إذ إن وجوده شرط أساس لوجود بلده وشعبه الذي يُدمر بأي هزة مفاجئة لزلازل. إذ جمع عرقه، وبلاده، والقوة العنصرية في حياة محتدمة، وفي طبيعة استوائية. لديه قوتها المترفة، وسحرها، وهو مثلها تماماً يحمل بذرة الخطر في داخله.

في غضون زيارات عديدة متعاقبة توصلنا إلى معرفة منصته جيداً؛ عند التلال على شكل قوس أرجواني، حيث الأشجار الرفيعة تميل على المنازل، والرمال الصفراء وغزارة اللون الأخضر للأودية. وكل شيء ملون بألوان مختلطة أو بسيطة، مواءمتها مفرطة تقريباً، والثبات المريب للمشهد الملون الذي يطوق على نحو مثالي التأثير البارع لذرائع كارين المذهلة بدا وكأنه يستبعد باقي العالم من المشهد الرائع إلى الأبد. إذ لا يمكن أن يكون هناك شيء خارج حدوده. كما لو أن الأرض واصلت الدوران بسرعة وتركت ذلك الجزء القليل من منصته وحيداً في الفضاء. بدا معزولاً عن كل شيء ما عدا أشعة الشمس، وحتى هذه خلقت من أجله وحده. فعندما سُئل ذات مرة ماذا على الجانب الآخر من التلال، أجاب مع ابتسامة ذات مغزى: «الأصدقاء والأعداء، الكثير من الأعداء، وإلا لماذا أشتري منكم بنادقكم وبارودكم؟» كان يتحدث دائماً بهذه الطريقة؛ كلمات مثالية من جانبه، تُظهر بأمانة حرصه على أسرار وحقائق المحيطين به. «أعداء وأصدقاء» ولا شيء آخر. كلماته غير محسوسة وثرية. كما لو أن الكرة الأرضية تدحرجت بعيداً عن أرضه بالفعل، وهو مع قلة من الناس يقفون محاطين بشغب صامت مثل ظلال متنازعة. إذ لا صوت يأتي من الخارج،

هذا مؤكد. «الأصدقاء والأعداء!» ربما أضاف لها: «الذكريات» بقدر ما يتعلق الأمر به على الأقل، لكنه أهمل هذه النقطة حينذاك. وأعدت صياغة نفسها في وقت لاحق، لكن ذلك كان بعد الأداء اليومي - في خلفية المسرح، إذا جاز التعبير، ومع انطفاء الأنوار. في غضون ذلك ملأ المنصة بهيبة همجية. فلقد قاد شعبه منذ حوالي عشر سنوات تقريباً - قسمة

17
ضيضى للبيكينز - الرُّحل - من أجل غزو الخليج، والآن هم في عنايته الجلييلة وقد نسوا كل شيء عن الماضي وفقدوا كل الحرص حول المستقبل. لقد منحهم الحكمة، أو النصيحة، الثواب، أو العقاب، الحياة أو الموت، مع السكينة ذاتها في السلوك والصوت. وفهم الري وفنون الحرب؛ وأنواع الأسلحة وحرفة بناء القوارب، ويمكنه إخفاء ما في قلبه، ولديه صبر كبير، ويستطيع السباحة لفترة طويلة، وتسيير قارب الكانو أفضل من أي شخص آخر من شعبه، كما يمكنه إطلاق النار بشكل أكثر دقة، وكذلك التفاوض بطرق ملتوية أكثر من أي رجل أعرفه من عرقه. كان مغامراً في البحر، مرفوضاً، وحاكماً وصديقاً عزيزاً. أتمنى له ميتة سريعة أثناء شجار بالأيدي، موت في وضح النهار، لأنه خَبِر تَأْيِيب الضمير والسلطة، ولا يمكن للرجل أن يطلب من الحياة أكثر من ذلك. فيوم بعد آخر يظهر أمامنا مخلصاً على نحو لا يقبل المقارنة مع أوهام المنصة، وعند غروب الشمس يهبط الليل سريعاً عليه مثل نزول ستار المسرح. وتصبح التلال المترابطة ظلالاً سوداء ترتفع عالياً على سماء صافية، وفوقها الارتباك المتلألئ للنجوم مثل اضطراب مجنون يهدأ بإيماءة، وتنقطع الأصوات، وينام الرجال، وتختفي الصور، وتظل واقعية الكون وحدها؛ شيء رائع من الظلام والبريق.

الشعب البكينيزي (The Buginese): هم جماعة عرقية، الأكثر عدداً من ثلاث مجموعات عرقية ولغوية في جنوب سولاويزي، في المقاطعة الجنوبية الغربية لسولاويزي، ثالث أكبر جزيرة في إندونيسيا. (المترجمة)

2

لكن عند الليل الذي يتحدث فيه بكل صراحة، ينسى فروض منصبته. ففي النهار يتم مناقشة قضايا الدولة. في البداية وقفت هيبتته وشكى غير العادل عائقاً بيني وبينه، بالإضافة للمناظر الطبيعية التصويرية التي تتطفل على واقعية حيواتنا عن طريق تصورها الجامد عن الرسم واللون. فأتباعه يتجمعون حوله، والأنصال الحادة لرماحهم فوق رأسه صنعت من رؤوسها الحديدية هالة شائكة. كما طوقوه بسياج بشري من بريق الحرير، ولمعان الأسلحة وهممة أصوات متحمسة منفعة مبدجة له. وسيغادر قبيل الغروب مع طقوس معينة؛ إذ ينزل للجلوس تحت مظلة حمراء وتحرسه مجموعة من القوارب. كل المجاديف كانت تُسحب وتضرب المياه في آن واحد مع تطاير هائل للرداذ تردد صداه عالياً في المدرج الضخم للتلال. والأسطول الصغير جرّ خلفه تياراً واسعاً من الرّبْد المتلألئ. وظهّرت الزوارق الصغيرة شديدة السواد في هسهسة رغوة الماء، وتمايلت العمائم ذهاباً وإياباً، والكثير من الأذرع القرمزية والصفراء ارتفعت وانخفضت بحركة واحدة. يرتدي

الرجال الذين يحملون الرماح ويقفون باستقامة عند تقوسات الزوارق السارونغ¹⁸— الملون وأكتافهم تلمع كأنهم تماثيل برونزية، والهمة الاستروفية¹⁹— لأغنية المجدفين تنتهي دورياً بصرخة حزينة. كانوا يتلاشون تدريجياً مع المسافة؛ حتى انقطعت الأغنية، وتجمهروا عند الشاطئ في الظلال الطويلة للتلال الغربية. وأشعة الشمس أطالت البقاء على القمم الأرجوانية، ويمكننا أن نراه وهو يقود الطريق إلى حصنه؛ رجلاً حاسر الرأس، قوي البنية يمشي بعيداً متقدماً الموكب غير المنظم، وتتمايل بانتظام عصا من خشب الأبنوس أطول منه. هبط الظلام بسرعة، وأومضت المشاعل بشكل متقطع خلف الشجيرات، وتلاشى تهليل لمرة أو مرتين في صمت المساء، وأخيراً بسط الليل وشاحه الناعم على الشاطئ والأضواء والأصوات.

حينذاك، وفي الوقت الذي نفكر فيه بالراحة، سيرحب حراس المركب الشراعي بالمجاديف في ليل الخليج المضاء بالنجوم، وسوف يستجيب صوت ما بنبرة متحفظة،

الاستروفية (Strophe): مصطلح شعري يشار به إلى جزء من قصيدة الكور اليونانية أو مقطع واحد منها. (المترجمة)

وربان قاربنا السيرانغ²⁰، وهو يضع رأسه تحت كوة ضوء مفتوحة، سيخبرنا دون مفاجأة: «هذا هو الراجا²¹— قد جاء. هو هنا الآن». ظهر كارين بكل هدوء في مدخل الكوخ الصغير. كان تجسيدا للبطانة حينها؛ يرتدي ملابس بيضاء، معصوب الرأس، ومن السلاح لم يكن معه سوى خنجر مع مقبض بسيط من قرن الجاموس أخفاه بلياقة داخل طية السارونغ قبل أن يخطو على عتبة الكوخ. ووجه حامل السيف العجوز؛ وجه منهك وحزين مغطى بتجاعيد بدا كما لو أنه ينظر من خلال خيوط شبكة دقيقة قاتمة، يمكن رؤيته فوق كتفيه تماماً. لا يتحرك كارين بدون ذلك المرافق الذي يقف أو يجلس القرفصاء خلف ظهره. لأنه ينفر من أي مساحة مفتوحة خلفه. بل إن الأمر أكثر من نفور، إنه شعور يشبه الخوف؛ استغراق عصبي في ما حدث سابقاً حيث لا يمكن أن يراه الآن. هذا، ونظراً للولاء الواضح والشديد الذي يحيط به، كان لا يمكن تفسيره. هو هناك لوحده في وسط رجال مخلصين، وفي أمان من مكائد العلاقات الطيبة مع الجيران، ومن الطموح الأخوي، وحتى إن أكثر من شخص من زوارنا أكد لنا أن حاكمهم لا يحتمل أن يكون وحيداً. قالوا: 1 حتى عندما يأكل وينام هناك دائماً رجل قوي ومسلح في الحراسة بالقرب منه». وهناك دائماً شخص بالقرب منه بكل تأكيد، رغم أن رواتنا ليس لديهم أي تصور عن قوة وسلاح الحراس لأن كليهما كان مضلاً ورهيباً. عرفنا ذلك، لكن في وقت لاحق، عندما سمعنا القصة. في غضون ذلك لاحظنا حتى أثناء أكثر المقابلات أهمية، أن كارين سيبدأ في الحديث ويقاطع نفسه، سيدفع ذراعه إلى الخلف بحركة مفاجئة ليشعر ما إذا كان رفيقه العجوز ما يزال هناك. الرفيق العجوز، المنيع والمنهك، كان دائماً هناك. يشاركه طعامه، وراحته وأفكاره، ويعرف

خطه، ويحرس أسراره، ويظل هادئاً خلف انفعال سيده، ودون أن يهتز ولو قليلاً، يهمهم فوق رأسه بلهجة مُهدئة بضع كلمات يُصعب فهمها.

يحدث ذلك فقط على متن المركب الشراعي، حين يكون محاطاً بالوجوه البيضاء، والنظرات والأصوات الغريبة، فحينئذ يبدو كارين كما لو أنه قد نسي الهاجس الغريب الذي يلتف مثل خيط أسود خلال الزهو العظيم لحياته العامة. وفي الليل كنا نتعامل معه بحرية وسهولة، ذلك أني امتنعت عن صفعه على ظهره ذات مرة، لأن هناك حريات يجب على المرء أن لا يتعامل بها مع رجل ملاوي. إذ قال بنفسه إنه في مثل هذه المناسبات يكون مجرد رجل خاص جاء ليرى السادة الآخرين الذين من المفترض أنهم من عرق أصيل مثله تماماً. وأظن بأنه حتى آخر لحظة كان واثقاً من أننا مبعوثون من الحكومة؛ من قبل رجال

رسميون غامضون يخدمون بعض المخططات المشبوهة عن طريق تجارتنا غير المشروعة لصالح سياسة عليا في إدارة شؤون الدولة. إلا أن رفضنا واعتراضنا لم ينفج. ابتسم لنا فقط بكياسة عاقل واستفسر عن الملكة. إذ إن كل زيارة تبدأ بذلك السؤال، كان شغوفاً بالتفاصيل، ومفتوناً بسلطة الملكية التي امتدت ظلالتها من الغرب إلى كل مكان من الأرض والبحار وتخطت إلى أبعد من ما ملكته يده في بلد محتل.

ضاعف الأسئلة، إذ رغب في معرفة المزيد عن الملكة الذي تحدث عنها بإعجاب وتقدير يتسمان بالنبل، مع نوع من الرهبة المفعمة بالعاطفة! وبعد ذلك، حين علمنا أنه كان ابن لسيده حكمت لعدة سنوات دولة بوغيس الصغيرة، أصابنا الشك في أن ذكرى والدته (أو من تحدث عنها بحماس) اختلطت في ذهنه بطريقة ما مع صورة كان يحاول صياغتها لنفسه لملكة بعيدة يصفها بالعظيمة، والمنبعة، والتقوية والمحظوظة. لذا لفقنا بعض التفاصيل أخيراً لإشباع فضوله الشديد، وينبغي الغفران لولائنا لأننا حاولنا جعلها مناسبة لتصوره المتوهج والمهيب. تحدثنا، وهبط الليل فوقنا، فوق المركب الشراعي الساكن، وفوق البلاد النائمة، وفوق بحر لا ينام ويهدر بين سلسلة من الصخور خارج الخليج. والمجدفان، وهما رجلان جديران بالثقة، ينامان في القارب عند أسفل سلمنا الجانبي. والرفيق العجوز، ارتاح من الواجب، إذ غلبه النعاس، ونام وظهره إلى درج المركب الداخلي، وجلس كارين باعتدال على كرسي السفينة الخشبي ذي الذراعين تحت تذبذب طفيف لضوء القمر وبين أصابعه الداكنة سيجار شيروت وكأس من عصير الليمون أمامه.

كان مستمتعاً بفوران الشراب، لكن بعد رشفة أو اثنتين سيتركه يهدأ، وبتلويحة مهذبة من يده يطلب زجاجة جديدة. فلقد استهلك جزءاً كبيراً من خزيننا الضئيل. لكننا لم نبخل عليه به، لأنه عندما يبدأ بالشرب يتحدث بشكل أفضل. وينبغي أن يكون بوغيسيّاً عظيماً متأنقاً في عصره، لأنه حتى ذلك الحين (وعندما تعرفنا عليه لم يعد شاباً) كان ظهوره العظيم أنيقاً ونظيفاً، كما حرص على صبغ شعره بمسحة خفيفة من اللون البني. الوقار والهدوء في سلوكه حول القمر ذات الضوء الخافت على المركب الشراعي إلى قاعة كبيرة.

تحدث عن سياسة الجزيرة الداخلية بسخرية وفطنة سوداوية. فلقد سافر كثيراً، ومعاناته لم تكن بسيطة، إذ خُذع وقاتل. ولديه دراية بالمحاكم المحلية، والمستوطنات الأوروبية، والغابات، والبحر، وتحدث إلى الكثير من الرجال المهمين كما قال ذلك بنفسه. ولقد أحب الحديث معي لأنني أعرف بعض من هؤلاء الرجال المهمين، وبدا أنه يفكر بأنني يمكن أن أفهمه، وبثقة عالية افترض أنني أستطيع تقدير عظمته على الأقل. لكنه يفضل الحديث عن بلده الأم، دولة بوغيس الصغيرة على جزيرة سيليبس، والتي كنت أزورها سابقاً من وقت لآخر ويسألني بشغف عن الأخبار. ومن عاداته أن يقول حين تُذكر أسماء الرجال في المحادثة: «تسابقنا في السباحة عندما كنا صبية»، أو «اصطدنا الغزال معاً، يمكنه استخدام الحبل والرمح مثلي تماماً». وبين الحين والآخر يحرك عينيه الكبيرتين الحالمتين بضجر، ويعبس أو يبتسم أو يستغرق في التفكير ويحدق بصمت، أو يومئ برأسه قليلاً عند ذكر بعض رؤى الماضي المؤسفة.

حكمت والدته دولة صغيرة شبه مستقلة على ساحل البحر عند رأس خليج بوني. تحدث عنها بفخر؛ إنها امرأة حازمة فيما يخص شؤون الدولة وقلبها أيضاً. فبعد وفاة زوجها الأول لم تثبط المعارضة المتمردة من قبل الزعماء عزميتها وتزوجت من تاجر ثري؛ رجل كورينجي بلا عائلة. كارين هو ابنها من زواجها الثاني، لكن من الواضح أن نسبه المشؤوم لا علاقة له بمنفاه. ولم يقل شيئاً عن السبب وراء ذلك، رغم أن لسانه زل به ذات مرة مع حسرة: «ها! لن تشعر أرضي بوزن جسدي بعد الآن»، لكنه حكى تلقائياً قصة ترحاله، وأخبرنا بكل شيء عن احتلال الخليج. وكتلميح إلى الناس خلف التلال، يهمهم بلطف ويلوح بيده بلا مبالاة: «هم جاؤوا عبر التلال لقتالنا، لكن من يهرب لن يعود ثانية على الإطلاق»، فكر لبعض الوقت، وابتسم لنفسه: «هرب منهم عدد قليل جداً» أضاف بهدوء وفخر. فهو يعتز بذكرى نجاحاته، ولديه توك شديد للمحاولة، وحين تحدت ظهر بمظهر المولع بالحرب، والفروسية، والرفعة. إذ لا عجب أن شعبه معجب به. فلقد رأيناه ذات مرة يمشي بين منازل المستعمرة فجراً. وعند أبواب الأكواخ استدارت مجموعات من النساء لمراقبته وهن يُغنين بعدوبة مع عيون تتلألأ، ورجال مسلحون وقفوا على جانبي الطريق، مذعنون ومعتدلو القامة، واقترب آخرون إلى جانبه؛ حنوا ظهورهم للتحدث معه بكل تواضع، وامتدت ذراع نحيلة مجعدة، «لتحل البركات عليك!» صاحت إحدى النساء عبر مدخل مظلم. وأظهر رجل عيناه متقدتان من فوق سياج منخفض لمساحة صغيرة من العشب وجهاً بدا عليه الانفعال، وصدراً عارياً مجروحاً في مكانين، ثم صاح لاهثاً خلفه: «ليمنح الرب النصر لسيدنا!» مشى كارين مسرعاً، بخطوات طويلة ثابتة، ورد التحية يميناً ويساراً مع نظرات سريعة ثابتة. والأطفال يركضون أمامه بين المنازل ويختلسون النظر بخوف حول ملتقى الشوارع، والشباب يراقبونه؛ ينزلقون من بين الشجيرات، وتلمع عيونهم من بين الأوراق الداكنة. وتحمل حامل السيف العجوز عبء غمد الخنجر الفضي، إذ يجر قدميه بسرعة على أعقابه ورأسه منحني وعيناه في الأرض. وفي خضم تلك الضجة العظيمة كانا يسيران بسرعة، وشاردين مثل رجلين مسرعين في عزلة كبيرة.

في قاعة المجلس خاصته يكون محاطاً بوقار القادة المسلحين، فيما صفان من الزعماء القدامى يرتدون ملابس قطنية ويجلسون القرفصاء وأذرعهم الخاملة تتدلى على ركبهم، تحت سقف القش المسنود بأعمدة مصقولة، وكل واحد منها ثمنه حياة الساق الرئيسة لنخلة صغيرة، ورائحة الوشيع المزهر تندفع في موجات دافئة. والشمس قد أفلت. وفي ساحة المنزل المفتوحة يمشي المتضرعون عبر البوابة رافعين أيديهم المضمومة فوق رؤوسهم المنحنية، وهم ما زالوا بعيدين، ويجلسون القرفصاء تحت الدفق الساطع من نور الشمس. تجلس الفتيات الصغيرات مع الزهور في أحضانهن تحت الأغصان المنتشرة على نطاق واسع لشجرة كبيرة. وينتشر الدخان الأزرق لحرائق الغابات في ضباب رقيق فوق أسطح عالية لمنازل ذات جدران لامعة من القصب المحبوك، وحولها من كل جانب الأعمدة الخشبية الجافة تحت حواف الأسطح المائلة. وكارين يضع القوانين العادلة في الظل، ويصدر الأوامر من على مقعد عالٍ، ويدلي بالنصيحة، والتأنيب. وتتعالى بين الحين والآخر همهمة الاستحسان، وينظر حاملو الرماح الخاملون المسترخون على الأعمدة بسأم إلى الفتيات ويديرون رؤوسهم ببطء. لم يُمنح أي رجل الملاذ لمثل كل ذلك الاحترام، والثقة، والرغبة. لكن من عادته أحياناً أن يميل إلى الأمام ويبدو كما لو أنه ينصت إلى تعليق معارض بعيد، أو كما لو أنه يرتقب سماع بعض الأصوات الخافتة؛ صوت خطوات خفيفة، أو يرتفع بعض الشيء عن مقعده، كما لو أنه لمس من كتفه بطريقة حميمية. أو ما في المقابل بخوف حين همس رفيقه العجوز في أذنه على نحو غير مسموع، وصرق القادة عيونهم بعيداً في صمت، لأن الساحر العجوز، الرجل الذي يأمر الأشباح ويرسل الأرواح الشريرة إلى الأعداء، تحدث بصوت منخفض إلى زعيمهم. وأحاط بالصمت القصير للمكان المفتوح صوت خفيف للأشجار، والضحكات الناعمة لفتيات يلعبن بالأزهار تعلقو في دفقات واضحة بصوت مبتهج. وفي نهاية الرماح المستقيمة الخصل الطويلة المتموجة والرقيقة لشعر حصان مصبوغ باللون القرمزي رفرقت في نسيم الريح، وخلف بريق الوشيع جدول ماء رائق يجري سريعاً مستتراً وصاحباً تحت العشب الواهن للشاطئ، مع همهمات قوية، وعاطفية، ودمثة.

بعد غروب الشمس، بعيداً عبر الحقول وعلى طول الخليج، ثمة عناقيد من المشاعل يمكن رؤيتها تشتعل تحت السطوح العالية لسقيفة المجلس. ولهب دخان أحمر يتمايل على أعمدة عالية، والوهج المتقد يومض على الوجوه، ويلتصق بالجذوع المصقولة لأشجار النخيل، كما أضرمت شرارات مضيئة على حواف أطباق معدنية تُبنت على الحصائر الجميلة. إذ أقام ذلك المغامر الغامض مأدبة مثل ملك. وجثمت مجموعة من الرجال في دوائر محكمة حول أطباق خشبية كبيرة، وحامت أياد سمراء على أكوام بيضاء من الأرز. وكارين يجلس على مقعد خشن بعيداً عن الآخرين، متكئاً على مرفقه مع رأس مائل، وإلى جانبه شاب ارتجل بنبرة عالية أغنية مجدت شجاعته وحكمته. تأرجح المغني جيئةً وذهاباً، وهو يلف عينيه المضطربتين، ونساء كبيرات في السن يعرجن على مقربة مع أطباقهن، والرجال يجلسون القرفصاء، ويرفعون رؤوسهم لينصتوا بوقار دون أن يتوقفوا عن تناول الطعام. ترددت أغنية الانتصار في الليل، وتوالت المقاطع الشعرية الحزينة

والحماسية مثل أفكار ناسك. أسكتهم بإيماءة، «كفى!» وصاحت بومة من بعيد، مبتهجة بلذة الظلام الشديد بين كثافة أوراق الشجر، وركضت السحالي فوق السقف المصنوع من سعف النخيل، وصاحت بنعومة، والأوراق الجافة للسقف أحدثت حفيفاً، وضجة الأصوات المختلطة تعالت فجأة، وبعد نظرة دائرية ومندهشة، كمثل رجل استيقظ فجأة لشعوره بالخطر، اعتدل كارين في جلسته مرة أخرى، وتحت النظرة السحيقة للساحر العجوز استعاد ببساطة الخيط الرفيع لحلمه. راقبوا مزاجه، وهدأت الضجة المتضخمة لحديث مفعم بالحيوية مثل موجة على شاطئ منحدر. ثم استغرق الزعيم في التفكير. إذ يُسمع أعلى الهمس المنتشر للأصوات المنخفضة، القعقعة الخفيفة للأسلحة فحسب، وكلمة مدوية واحدة بصوت مميز ومنفرد، أو الرنين الغامض لطبق نحاسي كبير.

3

كنا نزوره في فترات قصيرة متباعدة ولمدة عامين. فلقد أحببناه، ووثقنا به، وأعجبنا به إلى حد ما. كان يخطط ويستعد للحرب بصبر، بحكمة، بإخلاص لهدفه وبتجلد جعلني أظن أنه عاجز عنصرياً. بدا أنه لا يخاف من المستقبل. وعرض في خطفه دهاءً يحده فقط جهله العميق لبقية العالم. فلقد حاولنا توسيع معرفته، لكن محاولتنا لتوضيح الطبيعة الخطيرة للجيش التي يرغب في كبحها فشلت في إثبات عزمته لشن الهجوم على الرغم من بدائية خطته. لم يفهمنا ورد بحجج تقود المرء تقريباً إلى يأس بسبب دهائها الطفولي. إذ إن رده غريب وقاطع. وأحياناً نلتقط لمحات من كآبة، وغضب متقد في داخله. وإحساس غامض وقلق من الوقوع بالخطأ، ورغبة شديدة للعنف وهو أمر خطير لسكان البلد. فلقد كان يهذي مثل رجل أوحى إليه. وفي إحدى المناسبات وبعد أن تحدثنا معه في قرينته في وقت متأخر، قفز من مكانه. إذ اشتعلت نار عظيمة رائقة في البستان، ورقصت الأضواء والظلال معاً بين الأشجار في ليل هادئ وحلقت الخفافيش دخولاً وخروجاً من بين فروع الأشجار مثل رقائق ترتعش في ظلام شديد. فانتزع السيف من الرجل العجوز، أحدث أزيزاً وهو يخرج من القراب، ثم طعن رأسه في الأرض. واندفع بعد ذلك مقبض السيف الفضي المستقيم، الرفيع، متأرجحاً أمامه مثل شيء حي. رجع خطوة إلى الخلف، وبنبرة خافتة تحدث بشكل عنيف إلى اهتزاز الفولاذ: «إذا كان هناك قوة في النار، في الحديد، في تلك اليد التي أعدت الشاي، في الكلمات التي قيلت عن الشاي، في أمنية قلبي، وفي الحكمة التي صنعتها لنفسك، إذن يجب أن ننتصر معاً!» ثم استل السيف، ونظر على طول حافته. «خذ!» قال لحامل السيف العجوز من فوق كتفه. والآخر، لم يتأثر أداءه، ومسح رأسه بزاوية سارونغه، ثم أعاد السيف إلى قرابه، وجلس يرعاه على ركبتيه ولم ينظر نظرة واحدة إلى أعلى. كارين، أصبح هادئاً جداً فجأة، وغير مكانه بوقار، ونحن تخلينا عن الاعتراض بعد ذلك، وتركناه يمضي في طريقه نحو كارثة مشرفة. إذ إن كل ما يمكننا القيام به من أجله هو إثبات أن البارود من النوع الجيد من أجل الحصول على المال، والبنادق قابلة للاستعمال وإن كانت قديمة.

لكن اللعبة أصبحت خطيرة جداً في نهاية المطاف، ولو كنا نحن من نواجهها ببراعة غالباً، لفكرنا قليلاً بالخطر، فلقد قررر لنا من قبل بعض الأشخاص المحترمين جداً والذين يجلسون بأمان في مكاتب المحاسبة بأن المخاطر هناك كبيرة جداً، وأن بإمكاننا القيام برحلة واحدة فقط. وبعد تقديم العديد من التلميحات المضللة بالطريقة المعتادة عن غايتنا، تملصنا بهدوء، وبعد رحلة بحرية قصيرة وسريعة دخلنا الخليج. كان ذلك في الصباح الباكر، وحتى قبل نزول المرساة إلى القاع أحيط مركبنا الشراعي بالزوارق.

أول شيء سمعناه هو أن حامل سيف كارين الغامض قد وافاه الأجل منذ بضعة أيام. لم نعلق أهمية كبيرة على الأخبار. رغم أن من الصعب تصور كارين دون خادمه الملازم له، لكن الخادم كان كبيراً في السن، ولم يتحدث إلى أي منا، بالكاد سمعنا صوته ذات مرة، وجئنا لنلقي نظرة عليه كما لو كان جماداً، أو كما لو كان جزءاً من زينة صديقنا ووجهته، كما هو الحال مع ذلك السيف الذي يحمله أو المظلة الحمراء ذات الأطراف المهدبة المثبتة طوال رحلة ملكية رسمية. لم يزرنا كارين في وقت ما بعد الظهر كالعادة. لكن وصلتنا رسالة تحية وهدية من الفواكه والخضروات قبل غروب الشمس. فصديقنا دفع لنا مثل صاحب بنك، إلا أنه عاملنا مثل أمير. سهرنا من أجله حتى منتصف الليل. وتحت الظلة في مؤخر القارب جلجل الغيتار القديم للملطي جاكسون وغنى بلهجة سيئة أغنية حب إسبانية، بينما أنا والشاب هوليس تمددنا على سطح المركب ولعبنا الشطرنج على ضوء سفينة للبضائع. لم يظهر كارين. وفي اليوم التالي انشغلنا بتفريغ الحمولة، وسمعنا أن الراجا مريض. والدعوة المرتقبة لزيارته على الشاطئ لم تُبلغ بها بعد. فلقد أرسلنا الرسائل بلطف، لكن خشية التطفل على أسرار المجلس بقينا على سطح المركب. وفي وقت مبكر من اليوم الثالث أنزلنا كل البارود والبنادق، ومدفع من النحاس الأصفر يقذف قنابل زنة 6 أرطال مع عربته التي ساهمنا جميعاً في تقديمها هديةً لصديقنا.

الجو حار في وقت ما بعد الظهر. وحواف الغيوم السوداء غير المنتظمة بزغت على التلال. والعواصف الرعدية غير المرئية دارت في الخارج، وهدرت مثل وحوش برية. هيئاًنا المركب الشراعي للإبحار، وعزمنا على المغادرة في صباح اليوم التالي عند الفجر. إذ إن الشمس القاسية في الخليج تغرب كل يوم عنيفة وشاحبة، كما لو أن حرارتها وصلت إلى

الحرارة البيضاء²². لا شيء يتحرك في البلاد. فالشاطئ كان خالياً، والقرى بدت كما لو أنها مهجورة، والأشجار الساكنة تصطف بعيداً في مجموعات كما لو أنها مرسومة، والدخان الأبيض لبعض حرائق الأدغال غير المرئية نشر نفسه على شواطئ الخليج مثل ضباب متراكم. وفي وقت متأخر من اليوم الثالث، ارتدى رجال كارين أفضل ما لديهم ودججوا بالسلاح، وخرجوا في زورق صغير حاملين معهم صندوق من الدولارات. كانوا عابسين وواهنين، وأخبرونا بأنهم لم يروا الراجا منذ خمسة أيام. لم يره أحد! سوينا كل الحسابات، وبعد أن صافحنا بعضنا تباعاً وبصمت شديد، نزلوا إلى قاربهم واحداً تلو الآخر، وجدفوا نحو الشاطئ، وهم يجلسون قريبين من بعضهم البعض، لباسهم ألوانه زاهية، ورؤوسهم

منكسة: لمع التطريز الذهبي لسترهم بشدة كما لو أنهم انزلقوا بعيداً في المياه الرائقة، ولا أي أحد منهم نظر إلى الخلف مرة أخرى. وقبل غروب الشمس اندفعت الغيوم الهادرة إلى قمم التلال، وانخفضت عند المنحدرات الداخلية. ثم اختفى كل شيء، إلا بخار أسود دوّار ملاً الخليج، وفي وسطه يتمايل المركب الشراعي جيئةً وذهاباً مع حركة الريح المراوغة. قصفة رعد واحدة اقتحمت التجويف بعنف وبدت قادرة على شطر حلقة الأراضي المرتفعة إلى أجزاء صغيرة والتسبب في فيضان خطير. ثم تلاشت الريح. وركضنا لاهئين إلى الحجرة القريبة؛ وجوهنا تتقاطر، والخليج في الخارج يأز كما لو أنه يغلي، وسقطت المياه في ممرات منحدره جداً؛ ثقيلة مثل الرصاص، تهسهس حول السطح، وتصبّ على جانب الصواري، وتبقبق، وتحدث صوتاً كالنشيح، وتتناثر، وتدمدم في ليل أعمى. كما أن ضوء مصباحنا خافت. نزع هوليس ملبسه العلوية واستلقى ممدداً على الصناديق، وعيناه مغلقتان ساكن مثل جثة قد سُلبت، وجاكسون عند رأسه يعزف على الغيتار، ويلفظ لاهئاً متأوهاً لحناً حزيناً عن حب مستحيل وعيون مثل النجوم. وحينئذ سمعنا أصواتاً مروعة وبكاء على سطح المركب في المطر، وخطوات مسرعة على السقف، وفجأة ظهر كارين في مدخل الحجرة؛ صدره العاري ووجهه يلمعان في الضوء، وسارونغه ناقع وملتصق حول ساقيه، وغمد سلاحه بيده اليسرى، وخصل من شعره المبلل خرجت من تحت وشاحه الأحمر، ملتصقة على عينيه وتحت خديه. دخل بخطوة سريعة ونظر حوله بخوف مثل رجل مُلاحق. استدار هوليس على جانبه بسرعة وفتح عينيه. وجاكسون ضرب بيده الكبيرة على الأوتار وخمد صوت الاهتزاز المجلجل فجأة. وأنا نهضت على الفور.

«لم نسمع نداء قاربك!» صرخت.

«قارب! الرجل وصل سباحةً» تشدق هوليس من فوق الصندوق. «انظر إليه!».

كان يتنفس بصعوبة، غاضباً، بينما كنا ننظر إليه بصمت؛ يقطر منه الماء الذي صنع بركة داكنة، وانسابت باعوجاج فوق أرضية الحجرة. واستطعنا سماع جاكسون الذي خرج ليُبعد كل البحارة الملايوين من مدخل الدرج، وأقسم مهدداً في تمتمة بهطول مطر غزير، وأن هناك فوضى كبيرة على سطح المركب. إذ دُعر الحراس حين رأوا بنظرة خاطفة ظل إنسان قفز من فوق درابزين المركب، بشكل واضح في الليل، إذا جاز التعبير، وأرعب الطاقم بأكمله. وعاد جاكسون بعد ذلك وبدا غاضباً مع قطرات ماء تتلألأ على شعره ولحيته، وهوليس، وهو أصغرنا سناً، تصنع تفوقاً بليداً، قائلاً دون أن يبدو عليه التأثير: «أعطه سارونغ جديد، أعطه السارونغ خاصتي، إنه معلق في الحمام» وضع كارين سلاحه على الطاولة، والمقبض إلى الداخل، وهمهم ببضع كلمات بصوت مخنوق.

«ماذا؟!» سأل هوليس، الذي لم يسمع ما قاله.

«اعتذر عن دخوله وهو يحمل السلاح في يده» قلت بذهول.

«متسول مولع بالرسميات، قل له بأننا نسامح الصديق... في مثل هذه الليلة» قال هوليس متشدقاً. «ماذا حدث؟»

لبس كارين السارونغ الجاف فوق رأسه بسرعة وأسقط السارونغ المبلل عند قدميه، وخرج منه. أشرت له إلى الكرسي الخشبي ذي الذراعين؛ كرسيه الخشبي الذي اعتاد الجلوس عليه. وجلس عليه دون تردد وقال: «ها!» بصوت قوي، ورعشة قصيرة هزت جسده العريض. نظر حوله بحذر وقلق، كما لو أنه يتحدث إلينا لكنه يحدق بطريقة فضولية عمياء، ثم ينظر إلى الخلف مجدداً. صاح جاكسون «راقبوا سطح السفينة جيداً، أنتم هناك!» سمعنا رداً بصوت خافت من فوق، وحاول التواصل معهم بضرب باب الحجرة بقدمه بعنف.

«كل شيء على ما يرام الآن» قال.

تحركت شفتا كارين قليلاً. ووميض الصاعقة القوي جعل النافذتين المدورتين في حجرة المركب والمواجهتين له تبرقان مثل زوج من العيون الفسفورية والقاسية. وبدت شعلة المصباح كما لو أنها ذوت إلى غبار بني لوهلة، والمرأة على الطاولة الجانبية الصغيرة أبرزت خلف ظهره صفيحة ملساء من ضوء رصاصي. اقترب صوت الرعد، وأحدث ضجة فوقنا، واهتز المركب، واستمر الصوت القوي يتوعد بشدة من بعيد. وفي أقل من دقيقة سقط وابل من المطر على سطح المركب. نظر كارين ببطء من وجهه إلى وجهه، وبعد ذلك أصبح الصمت عميقاً جداً حتى إننا سمعنا بوضوح تكات جهازي الكونومتر في حجرتي، إلى جانب سرعة لا تكل معاكسة لبعضها البعض.

ونحن الثلاثة، كنا نتحرك على نحو غريب، ولا نستطيع إبعاد أعيننا عنه. لقد أصبح غامضاً ومؤثراً، على حسب ذلك السبب المبهم الذي دفعه في الليل وفي العاصفة الرعدية إلى مأوى قمرة المركب. إذ لم يشك أي أحد منا بأننا كنا ننظر إلى شيء صعب الإمساك به، شيء لا يُصدق كما ظهر لنا. بدا شاحباً كما لو أنه لم ينم منذ أسابيع، وأصبح هزياً كما لو أنه لم يأكل منذ أيام؛ خداه أجوفان، وعيناه غائران، وعضلات صدره وذراعيه ترتجف قليلاً كما لو أنه قد كان في مصارعة مرهقة. فلقد قطع بالطبع مسافة طويلة في السباحة إلى المركب، لكن وجهه أظهر نوعاً آخر من التعب؛ إنه الإرهاق من التعذيب، أو الغضب والخوف من صراع مع فكرة، أو رأي، أو ضد شيء لا يمكن مصارعتة؛ شيء لا يُطمئن أبداً، مثل ظل، أو لا شيء، أو شيء لا يُقهر وأزلي، شيء يفترس الحياة. نحن عرفناه، إذ كما لو أنه صرخ به نحونا. وصدرة كان يتسع مرة بعد أخرى، كما لو أنه لا يستطيع كبت ضربات قلبه. وفي لحظة أصبح لديه القدرة على الهدوء، والقدرة على إيقاظ الدهشة لدى الناظرين، وكذلك الألم، والشفقة، وشعور مخيف يقترب من شعور الإحساس بأشياء خفية، أو أشياء معتمدة وصامتة تحيط عزلة البشرية. وطافت عيناه هنا وهناك بلا هدف لدقيقة، ثم سكن. وقال بعد ذلك بصعوبة:

«جئت إلى هنا... خرجت مسرعاً من حصني بعد هزيمة. وركضت في الليل. والمياه كانت سوداء. وتركته يصيح على شفا المياه السوداء... تركته وحيداً على الشاطئ. سبحت... صرخ خلفي... وأنا أسبح...».

كان يرتجف من رأسه حتى قدميه؛ يجلس منتصباً ويحدق أمامه مباشرة. ترك من؟ من الذي صرخ؟ لم نعرف. لا نستطيع أن نفهم. قلت مجازفاً:
«كن مطمئناً».

بدا أن رنين صوتي قد هدأه إلى صلابة مباغتة، لكنه لم يهتم من جانب آخر. كأنما سمع، أو ترقب شيئاً للحظة، ثم واصل كلامه...

«لا يمكنه المجيء إلى هنا، لهذا بحثت عنكم. أنتم رجال وجوهكم بيضاء تحتقرون الأصوات الخفية. وهو لا يستطيع الإذعان إلى كفركم ومقاومتكم».

صمت لفترة من الوقت، ثم هتف بهدوء:

«أوه! مقاومة الكفار!»

«لا يوجد أحد غيرك هنا ونحن الثلاثة» قال هوليس بهدوء. ثم انحنى مع رأسه مسنوداً على كوعه ولم يتزحزح.

«أعرف» قال كارين. «لن يتبعني إلى هنا أبداً. ألم يكن الرجل الحكيم إلى جانبي دائماً؟ لكن منذ أن توفي الرجل العجوز الذي كان يعرف مشاكلتي بدأت أسمع الصوت كل ليلة. لذا حبست نفسي لعدة أيام في الظلام. إلا أنني أستطيع أن أسمع المهمة الحزينة للنساء، وهمس الريح، والمياه الجارية، واشتباك الأسلحة في أيدي المخلصين، ووقع أقدامهم، وصوته!... قريباً... هكذا! في أذني! شعرت به قريباً. مر نفسه على رقبتني. ولاحظت كل ذلك بوضوح دون أن أصرخ. كل الرجال حولي كانوا ينامون بهدوء. لذا ركضت إلى البحر. وركض هو إلى جانبي دون أثر لأقدام؛ يهمس، يهمس بكلمات قديمة، يهمس في أذني بصوته العجوز. ركضت إلى البحر. سبحت نحوكم وسلاحي بين أسناني. أنا مزود بالسلح، هربت إليكم قبل برهة. خذوني إلى بلادكم. الرجل العجوز الحكيم قد مات ومعه ذهبت قوة كلماته وسحره. ولا أستطيع أن أقول هذا لأي أحد. أي أحد. لا يوجد هنا شخص مخلص وحكيم بما يكفي ليعرف بالأمر. فقط بالقرب منكم، أنتم الكفار، تتلاشى مشكلتي مثل ضباب تحت أشعة الشمس».

استدار كارين نحوي.

«أذهب معك!» صاح بصوت مكبوت، «معك، أنت تعرف الكثير عنا. أريد أن أترك هذه البلاد، شعبي... وهو، هناك!».

أشار بأصبع مرتعش إلى كتفه بشكل عشوائي. وكان من الصعب علينا تحمل شدة تلك المحنة الغامضة. حدق هوليس به بحدة. وسالت بلطف:

«أين هو الخطر؟»

«أي مكان خارج هذا المكان» أجاب بحزن: «في كل مكان أنا فيه. ينتظرنني على الطريق، وتحت الأشجار، وفي المكان الذي أنام فيه، في كل مكان ما عدا هذا المكان.»

نظر في كل أرجاء الحجرة الصغيرة، وإلى العارضة المطلية، وإلى الطلاء الذي يلوث الحواجز، نظر حوله كما لو أنه يستغيث بكل غرابتها الرثة، وبالمزيج المضطرب لأشياء غريبة تنتمي لحياة مستحيلة من القلق، والقوة، والجهد، والشك، تنتمي للحياة القوية للرجال البيض الذين يواصلون العيش في خطر ومشقة على حافة الظلمة الخارجية²³. مد ذراعيه كما لو أنه يعانقهما أو يعانقنا. ونحن ننتظر. سكنت الريح وتوقف هطول المطر، وسكون الليل حول المركب كان أخرس وتاماً كما لو أن عالماً ميتاً دُفن في قبر من الغيوم. كنا نتطلع

إلى حديثه. والرغبة الملحة في داخله تمزقت على شفتيه. فهناك من يقولون إن المواطن لن يتحدث إلى رجل أبيض. وهذا خطأ؛ لا يوجد رجل يريد الحديث إلى سيده، بل إلى متشرد وصديق، إلى من لم يأت ليُعلم أو ليحكم، إلى من لم يطلب أي شيء ورضي بكل شيء؛ كلمات نطقت بها نيران المخيمات، والعزلة المشتركة مع البحر، والقرى على ضفة النهر، كما أماكن الاستراحة المحيطة بالغابات؛ والكلمات قالت أن لا اعتبار لعرق أو لون. قلب واحد يتحدث والآخر يسمع، والأرض، والبحر، والسماء والريح العابرة والورقة المرتجفة، تسمع أيضاً الحكاية العقيمة عن أعباء الحياة.

تحدث أخيراً. ومن المستحيل إيصال تأثير قصته. لأنها أبدية، إنها مجرد ذكرى، ولا يمكن تفسير حيويتها لعقل آخر، إذ إنها أكثر من مشاعر حيوية في حلم. وينبغي على المرء أن يشهد روعته الفطرية، وينبغي على المرء معرفته من قبل، والنظر إليه وهو يحكيها. الظلام المتذبذب في حجرة المركب الصغيرة، والسكون المبهر في الخارج، رغم أن ارتطام المياه بجوانب المركب يمكن سماعها، ووجه هوليس الشاحب وعيناه الداكنتان الثابتتان، ورأس جاكسون النشيط الذي يبرز من بين راحتيه الكبيرتين، والشعر الطويل الأصفر للحيته يتدلى على أوتار غيتاره الموضوع على الطاولة، ووضعية جسد كارين المعتدلة والساكنة، ونبرته، كل ذلك ترك انطباعاً لا يمكن نسيانه. كان يواجهنا على الجانب الآخر من الطاولة. إذ ظهر رأسه الداكن وجسده البرونزي فوق لوح الخشب الملوث لامعاً وساكناً كما لو أنه صُبَّ

في معدن. وحدها شفتاه تتحركان، وعيناه تلمعان، تنطفئان، ثم تتقدان مرة أخرى، أو تحقدان بحزن. لأن تعبيراته خرجت مباشرة من قلبه المعذب. وبدا صوت كلماته خافتاً، في مهمة حزينة مثل مياه جارئة، رغم أن كلماته ترن بصوت عالٍ مثل صليل ناقوس الحرب أو تتلاشى رويداً رويداً مثل مسافرين مرهقين أو تتقدم مسرعة من الخوف.

4

هذا ما قاله على نحو ناقص:

«حدث ذلك بعد عناء طويل انتهى إلى كسر تحالف أربع دول لواجو²⁴. إذ تقاتلنا فيما بيننا، والهولنديون كانوا ينظرون إلينا من بعيد حتى تعبنا. وشوهد في ذلك الحين الدخان يتصاعد

من سفنهم المقاتلة عند مصب أنهارنا، وجاء قادتهم في قوارب مليئة بالجنود للحديث معنا عن الحماية والسلام. فأجبنا بحذر وحكمة، لأن قُرانا احترقت، وحصوننا ضعيفة، والناس متعبون، والأسلحة مثلومة. جاؤوا وذهبوا، وقيل الكثير من الكلام، لكن بعد أن ذهبوا بعيداً بدا أن كل شيء عاد كما كان من قبل، ظلت سفنهم فقط على مرأى من شاطئنا، وسريعاً جاء تجارهم إلينا مع وعد الأمن والسلام. أخي كان الحاكم، وأحد الذين قطعوا الوعد. إذ قاتلت في الحرب وأنا شاب صغير حينها، وياتا ماتارا يقاتل إلى جانبي. تقاسمنا الجوع، والخطر، والتعب، والنصر. ترى عيناه الخطر المحقق بي بسرعة، وأنقذ ذراعي وأنقذت حياته لمرتين. إنه قدره. إنه صديقي؛ وله مكانة عظيمة بيننا، وأحد الذين كانوا إلى جانب أخي الحاكم، ومتحدث في المجلس، وشجاعته عظيمة، وهو زعيم الكثير من القرى حول بحيرة عظيمة في وسط بلادنا والتي هي بمكانة القلب للجسد. وعندما حمل سيفه إلى القرية استعداداً لقدمه، همسن العذراوات بإعجاب تحت أشجار الفاكهة، وتشاور الأثرياء مع بعضهم في الظل، وأعدت الوليمة سلفاً مع أجواء فرح وأغان. إذ حظي بتأييد الحاكم وحب الفقراء. أحب الحرب، ومطاردة الغزلان، وسحر النساء. وأمتلك الجواهر، والأسلحة المباركة وإخلاص الرجال. كان رجلاً شرساً، ولم يكن لدي صديق غيره.

كنت قائداً للحصن عند مصب النهر، وأجمع رسوم عبور القوارب لأخي. وفي يوم ما رأيت تاجراً هولندياً يطلع النهر؛ طلع مع ثلاث قوارب، ولم يُطالب بدفع الرسوم، لأن دخان السفن الحربية الهولندية تصاعد من البحر المفتوح، وكنا ضعفاء جداً، لذا لم نجرؤ على نسيان المعاهدات. طلع النهر اعتماداً على وعد الأمان، وأخي منحه الحماية. إذ قال إنه جاء للتجارة. استمع إلى أصواتنا لأننا رجال يتحدثون بصراحة ودون خوف. وأحصى عدد رماحنا، وفحص الأشجار، والمياه الجارية، والأعشاب على الشاطئ، ومنحدرات تلالنا. تقدم نحو بلدة ماتارا وحصل على إذن بناء منزل؛ ليقايض ويزرع. سخر من نكاتنا، وأفكارنا،

وأحزاننا. وجهه أحمر، وشعره مثل شعلة، وعيناه باهتتان مثل ضباب النهر، يتحرك بصعوبة، ويتحدث بصوت عميق، ويضحك بصوت عالٍ مثل أبله، ولا مجاملة في حديثه. رجل ضخم وساخر، ينظر في وجوه النساء ويضع يده على أكتاف الرجال الأحرار كما لو أنه زعيم نبيل بالفطرة. وكنا نشعر بالضجر معه. لقد مر زمن على ذلك.

هربت أخت ماتارا من القرية حينئذ، وذهبت للعيش في بيت الرجل الهولندي. إنها سيدة قوية وعنيدة، رأيتها ذات مرة تُحمل على أكتاف العبيد بين الناس، ووجهها مكشوف، وسمعت كل الرجال يقولون إن جمالها مفرط؛ يُسكت العقول ويسحر قلوب الناظرين. شعر الناس بالفزع، واسود وجه ماتارا بذلك العار، لأنها تعلم بأنها قد وُعد بها لرجل آخر، لذا ذهب ماتارا إلى بيت الرجل الهولندي وقال له: «أتركها للموت – إنها ابنة الزعيم» رفض الرجل الأبيض وحبس نفسه، بينما عبيده يحرسونه ليلاً ونهاراً مع بنادق محشوة بالبارود. غضب ماتارا. ودعا أخي إلى عقد المجلس. لكن السفن الهولندية كانت قريبة وتراقب شاطئنا بجشع. لذا قال أخي: «إذا مات الآن فإن بلادنا كلها سوف تدفع ثمن دمه. دعوه وشأنه حتى تزداد قوتنا وتغادرنا السفن». ماتارا كان حكيماً؛ لذا انتظر وراقب. لكن الرجل الأبيض خاف على حياتها وذهب بعيداً.

ترك منزله، ومزارعه، وبضاعته! غادر مسلحاً ومتوعداً، وترك كل شيء من أجلها! لقد سلبت قلبه! رأيت من حصني وهو يخرج إلى البحر بزورق كبير. إذ راقبناه أنا وماتارا من منصة القتال خلف الأوتاد المسننة. كان يجلس القرفصاء وبنديته في يديه، على السطح عند مؤخر الپراو²⁵ خاصته. وفوهة بندقيته تلمع أمام وجهه الأحمر الكبير. والنهر العريض ممتداً تحته؛ ممهداً، وعذباً، وبراقاً، مثل سهل من الفضة، وبدا الپراو خاصته قصيراً وداكناً جداً من عند الشاطئ، إذ انساب على طول السهل الفضي وابتعد نحو زرقة البحر.

صاح ماتارا لثلاث مرات باسمها بصوت عالٍ، حزيناً ولاعناً وهو يقف إلى جانبي. فلقد هز مشاعري. توثب ثلاث مرات، وتمثلت لثلاث مرات إلى مخيلتي في الظلمة داخل المساحة المطوقة للپراو امرأة شعرها مناسب تذهب بعيداً عن بلادها وأهلها. غضبت وحزنت. لماذا؟ وصرخت أيضاً بشتائم وتهديدات. قال ماتارا: «لقد تركا الآن أرضنا، وحياتهما لم تعد مهمة. سوف أتبعهما وأقتلهما، ووحدي أدفع ثمن الدم». هبت عاصفة شعواء عند مغيب الشمس فوق النهر الفارغ. وصرخت: «سوف أكون إلي جانبك!» طأطأ رأسه في إشارة على الموافقة. إنه قدره. غابت الشمس، وتمايلت أغصان الأشجار مع ضجة عظيمة فوق رؤوسنا.

وفي الليلة الثالثة، غادرنا بلادنا معاً على ظهر پراو تجاري.

البحر آمن لنا؛ البحر الواسع المنيع الصامت. والقارب الشراعي لا يترك أثراً خلفه. ذهبنا نحو الجنوب. والقمر كان بدرأ، وتشاورنا، إذ قال أحدنا للآخر: «عندما يشرق القمر التالي، سوف

نعود وهما في عداد الأموات» حدث ذلك منذ خمسة عشر عاماً، والكثير من الأقمار أشرقت وغابت ولم أرْ بلدي منذ ذلك الحين. أبحرنا جنوباً متخطين العديد من الزوارق الصغيرة، واختبرنا الجداول والخلجان، ورأينا نهاية شاطئنا، ونهاية جزيرتنا، والأرض المنحدرة فوق مضيق مضطرب، حيث تنجرف أشباح السفن الغارقة وصراخ الرجال الغرقى في الليل. والبحر الهائل يحيطنا من جميع الجهات. ورأينا جبلاً عظيماً يشتعل في وسط المياه، ورأينا آلاف الجزر الصغيرة المبعثرة مثل قطع صغيرة من الحديد أُطلق من مدفع كبير، ورأينا ساحلاً طويلاً من جبل وأراضٍ منخفضة ممتدة تحت أشعة الشمس من

براو (Prau): مركب شراعي سريع يستخدم على نطاق واسع في المياه الملايوية. البراو ضيق وطويل مزود بشراعين في المقدمة والمؤخر. كان مشهوراً في وقت ما مع القراصنة الملايويين. (الترجمة)

الغرب إلى الشرق. تلك هي جزيرة جاوه. وقلنا لبعضنا: «هما هناك، حان وقتهما، وسوف نعود أو نموت متطهرين من العار».

«نزلنا إلى اليابسة. وتساءلنا: هل هناك أي شيء جيد في تلك البلاد؟ إذ إن الطرق كانت مستوية، وقاسية ومغبرة. وثمة قرى صغيرة بيوتها من الحجر، مليئة بالوجوه البيضاء، تحيطها الحقول الخصبة، لكن كل رجل تلتقي به هناك هو عبد. فالحكام يعيشون تحت حد سيف الأجنبي. تسلقنا الجبال واجتزنا الأودية، وعند الغروب دخلنا القرى. وسألنا كل من نلاقه: «هل رأيت مثل هذا الرجل الأبيض؟» حدق بعضهم بنا، وضحك آخرون، والنساء قدمنَ لنا الطعام مع خوف وتقدير في بعض الأحيان، كما لو أننا مجانين جراء عقوبة من الرب، لكن البعض لم يفهموا لغتنا، والبعض الآخر شتمونا، أو تشاءبوا بينما يسألون باحتقار عن السبب وراء بحثنا. وذات مرة، حين كنا نهم بالرحيل، صاح رجل عجوز خلفنا: «توقفوا!».

مضينا في طريقنا. وأخفينا أسلحتنا، إذ كنا نقف جانباً بتواضع في حضرة الفرسان حين يمرّون في الطرقات، ونحنى في أفنية الزعماء الذين لم يكونوا أفضل حالاً من العبيد. وضعنا في الحقول، وفي الغابة. وفي إحدى الليالي، في غابة متشابكة الأشجار، وصلنا إلى مكان حيث جدران قديمة متداخلة سقطت بين الأشجار، وحيث أوثان حجرية غريبة، وتمائيل منقوشة لشياطين مع العديد من الأذرع والسيقان وأفاعي ملتفة حول أجسادهم، مع عشرين رأساً وتمسك مئة سيف، إذ بدت لنا كما لو أنها حيّة وتتوعدنا في ضوء نار مخيمنا. لا شيء يرعبنا حينذاك. وفي الطريق، بالقرب من كل نار في أماكن الراحة التي نمر بها، كنا نتحدث دائماً عنه أو عنها. لقد اقترب الموعد. لا نتحدث عن أي شيء آخر. لا! لا نتحدث عن الجوع، والعطش، والتعب، والقلوب الحائرة. لا! كنا نتحدث عنه وعنّها! أو عنها! وكنا نفكر بهما، أو نفكر بها! جلس ماتارا في سكينه إلى جانب النار. وأنا جلست وفكرت وفكرت، وعلى حين غرة استطعت أن أرى مرة أخرى صورة امرأة جميلة وشابة وعظيمة وفخورة وناعمة، تذهب بعيداً عن أرضها وشعبها. قال ماتارا: «عندما نجدهما سوف نقتلها

هي أولاً لتغسل العار، وبعد ذلك يجب أن يموت الرجل»، فقلت له: «يجب أن يحدث ذلك، إنه تارك» حدق في وجهي طويلاً بعينيه الكبيرتين الغائرتين.

عدنا إلى الشاطئ. وأقدامنا تنزف، وجسدانا نحيلان. نمنا على خرقة تحت ظل سياج حجري؛ إذ كنا نتجول خلسة، متسخين وهزيلين، حول بوابات أفنية بيوت الرجال البيض. كلابهم المشعرة تنبح علينا، وخدمهم يصيحون من بعيد: «انصرفوا!» التعساء وضيعو الأصل، أولئك الذين يحرسون شوارع البيوت الحجرية، سألونا من نكون. كذبنا، وتذللنا، وابتسمنا مع كراهية في قلبينا، وبقينا نبحت عنهما هنا وهناك؛ عن الرجل الأبيض الذي شعره مثل شعلة، وعنهما، عن المرأة التي حطمت العقيدة ولذلك يجب أن تموت. بحثنا في كل مكان. وأخيراً ظننتُ أنني أستطيع رؤيتها في وجه كل امرأة. ركضنا مسرعين. لا! فأحياناً يهمس ماتارا: «هذا هو الرجل!» ومنتظر جاثمين. اقترب منا. لكن لم يكن هو الرجل الذي نبحت عنه، لأن أولئك الهولنديين متشابهون. ولقد عانينا عذاب الخداع. رأيتُ وجهها في نومي، كانت سعيدة ونادمة في آن واحد... لماذا؟ وبدا أنني سمعت همساً بالقرب مني. لذا استدرت سريعاً. لكنها لم تكن هناك! وحين كنا نمشي مجهدين بملل من مدينة حجرية إلى مدينة حجرية بدا أنني سمعت وقع خطى خفيفة بالقرب مني. وفي أوقات كنت أسمعها دائماً وأسعد بذلك. إذ ربما المشي وأنا مشوش الذهن ومتعب تحت أشعة الشمس في دروب الرجال البيض القاسية جعلني أظن أنها هنا، معنا!... شعر ماتارا بالكآبة. وكنا جائعين في كثير من الأحيان.

بعنا الأغمد المزخرفة لأسلحتنا؛ الأغمد العاجية ذات الحلقات الذهبية. وبعنا مقابض السيوف المرصعة بالجواهر. لكننا احتفظنا بالسيوف من أجلهما. السيوف التي لم تلمس من قبل لكنها تقتل. احتفظنا بالسيوف من أجلها... لماذا؟ إنها دائماً إلى جانبنا. كنا نتضور جوعاً. ونتسول. وأخيراً غادرنا جاوه.

ذهبنا غرباً، وذهبنا شرقاً. ورأينا الكثير من البلدان، وحشوداً من الوجوه الغريبة، وأناساً يعيشون في الأشجار وأناساً يأكلون مسنينهم. كنا نقطع الخيزران في الغابة من أجل حفنة من الأرز، ونجتاح سطوح السفن الكبيرة من أجل العيش ونسمع سيلاً من الشتائم فوق رؤوسنا. عملنا بكد في القرى، وطفنا البحار مع الباجويين²⁶ الذين ليس لديهم وطن. وقاتلنا مقابل أجرة، وعملنا مقابل أجر لصالح القراصنة، وخذعنا، وبناءً على أوامر الوجوه البيضاء القاسية غصنا من أجل اللؤلؤ في خلجان فارغة مرقطة بالحجر الأسود، فوق شاطئ معزول من الرمال. وكنا نبحت في كل مكان، ننصت، ونسأل. سألنا التجار، ورجال العصابات، والرجال البيض. سمعنا صرخات عدائية، وساخرة، ومتوعدة، وكلمات إعجاب وكلمات احتقار. ولم نعرف الراحة أبداً، ولم نفكر بالوطن، لأن عملنا لم ينجز بعد. مر عام، وعام آخر. حتى توقفت عن حساب عدد الليالي، والأقمار، والسنين. أعتنيتُ بماتارا، الذي أمنحه آخر حفنة لي من الأرز، ولو كان هناك ماء كاف لشخص واحد يشربه هو، وأعطيه حين يرتجف من البرد، وحين يمرض من الحر، أسهر إلى جانبه ليلاً طويلة وأنفخ على

وجهه. إنه رجل شرس، وهو صديقي. تحدث عنها بغضب في النهار، وبحزن في الليل. وتذكرها في صحته ومرضه. لا أقول شيئاً، لكني أراها كل يوم، دائماً! في البداية أرى رأسها فقط؛ مثل امرأة تمشي في ضباب على سطح نهر. ومن ثمّ تجلس بالقرب منا. كنت أراها! أنظر إليها! لديها عينان حنونتان ووجه فاتن. همست لها في الليل. فأحياناً يقول

ماتارا وهو ناعس: «إلى من تتحدث؟ من هناك؟»، فأجيبه بسرعة: «لا أحد» كنت أكذب، لأنها لم تفارقني. إذ إنها تشاركنا دفاء نارنا. وتجلس على سريري من أوراق الشجر، وتسبح في البحر لتتبعني... كنت أراها! أقول لكم إنني رأيتُ شعرها الأسود الطويل ينتشر خلفها على المياه المضاءة بضوء القمر وهي تضرب المياه بذراعيها العاريتين إلى جانب القارب السريع. إنها جميلة، ووفية، وفي صمت المدن الغربية تحدثت إليّ هامسة بلغة شعبي. لا أحد يراها، ولا أحد يسمعها، كانت لي فقط! وفي النهار تمشي متمايلة أمامي على الطرق المرهقة؛ قوامها معتدل ومرن مثل جذع شجرة رقيقة، وكعوب قدميها مدورة ولامعة مثل قشور البيض، وتصنع إشارات بذراعيها. وفي الليل تنظر في وجهي، أراها حزينة! وعينيها حنونتين وخائفتين، وصوتها ناعماً ومتضرعاً. فلقد همست لها ذات مرة: «لن تموتي!» وابتسمت لي... فبعد أن تبتسم تمنحني دائماً القدرة على تحمل التعب والمشقة. تلك الأوقات كانت مؤلمة، وهي من خفف عني الألم. كنا نتجول ونبحث بصبر. وعرفنا الخيانة، والآمال الكاذبة، وعرفنا الأسر، والمرض، والعطش، والبؤس، واليأس... كفى! وأخيراً عثرنا عليهما! «

صرخ بالكلمات الأخيرة وتوقف. أصبح وجهه هادئاً، وظل ساكناً كأنه في حالة نشوة. جلس هوليس بسرعة، ووضع مرفقيه على الطاولة. وافتل جاكسون حركة فظة ولمس الغيتار عن طريق الخطأ؛ رنين حزين ملاً الحجرة بذبذبات مشوشة خمدت رويداً رويداً. ثم بدأ كارين بالحديث مرة أخرى. وبدا العنف المكبوت في نبرة صوته كما لو أنه يتزايد مثل صوت يأتي من الخارج، مثل شيء لا يوصف لكن يُسمع؛ ملاً الحجرة وغلف بهمهمته الحادة والخافتة الجسد الهامد على الكرسي.

كنا في طريقنا إلى آجيه، حيث الحرب قائمة هناك، لكن القارب سار على الرمال، ونزلنا إلى اليابسة في دلي. وكنا قد كسبنا القليل من المال واشترينا بندقية من بعض تجار سلاغور، بندقية واحدة فقط، يُشعل شرارتها حجر، ويحملها ماتارا. نزلنا إلى اليابسة. إذ يعيش الكثير من الرجال البيض هناك؛ يزرعون التبغ في السهول المحتلة، وماتارا... هذا غير مهم. رآه!... الهولندي!... أخيراً! تسللنا خلفه وراقبناه. راقبناه ليلتين ويوم؛ لديه منزل، منزل كبير في أرض في وسط حقوله، وزُرع حوله الزهور والشجيرات، وثمة ممرات ضيقة من التربة الصفراء بين العشب المشذب، وأسيجة سميكة لإبقاء الناس خارجه. وفي الليلة الثالثة وصلنا مسلحين، واستلقينا خلف السياج.

ندى كثيف كما لو أنه قد تخلل لحمنا وجعل أمعاءنا باردة جداً. والعشب، والأغصان، وأوراق الأشجار المغطاة بقطرات الماء، بدت رمادية في ضوء القمر. تلوّى ماتارا على العشب وارتعش في نومه. وحدث اصطكاك أسناني صخباً شديداً في رأسي حتى إني خفت أن يوقظ الضجيج البلاد كلها. ومن بُعد، حراس منزل الرجل الأبيض يضربون خشبتين ببعضهما ويصيحون في الظلام. ومثل كل ليلة، رأيتها إلى جانبي. وابتسمت لي فحسب!... اشتعل حريق المعاناة في صدري، فهمست لي بحنان، وشفقة، ولطف - إنه إصرار النساء، كما خفت ألم رأسي، ثم قربت وجهها مني؛ وجه المرأة التي فتنت قلوب الرجال وأخرست عقولهم. كانت لي وحدي! ولا أحد يستطيع رؤيتها، ولا أي إنسان على قيد الحياة! ولقد أشرقت النجوم في صدرها، وفي شعرها الطليق. لكن تغلب عليّ الندم، والحنان، والحزن. ماتارا كان نائماً... هل كنت نائماً أيضاً؟ هزني ماتارا من كتفي، إذ جففت حرارة الشمس العشب، والشجيرات وأوراق الشجر. إنه النهار. وكُتِل الضباب الأبيض معلقة بين فروع الأشجار.

هل كان الوقت ليلاً أم نهاراً؟ لم أر أي شيء مرة أخرى حتى سمعت ماتارا يتنفس بسرعة حيث يرقد، وبعد ذلك رأيتها خارج المنزل. رأيتها. فلقد خرجا من المنزل. وجلست هي على مقعد تحت الجدار، وأغصان محملة بالزهور تسلقت عالياً فوق رأسها، وتدلت فوق شعرها. وضعت صندوقاً في حجرها وحدقت به، وعدت الزيادة في اللؤلؤ خاصتها. والهولندي وقف إلى جانبها يراقب، ويبتسم إليها؛ لمعت أسنانه البيضاء، والشعر على شفته بدا مثل شعلتين ملفوفتين. إنه رجل ضخم وسمين وسعيد ولا يخاف. قلب ماتارا فتيلة جديدة في تجويف راحة كفه، وحك الحجر بأظفر إبهامه، وأعطاني البندقية. لي! وأخذتها منه... يا للكارثة!

همس في أذني، مستلقياً على بطنه: «سوف أزحف لأقترب أكثر وبعد ذلك اندفع نحوهما... دعها تموت بيدي. وتوجه أنت نحو الخنزير السمين هناك. دعه يراني وأنا أمحي عاري من على وجه الأرض. وعندئذ... أنت صديقي، أطلق النار عليه بلا تردد» لم أقل شيئاً، إذ لم يكن هناك هواء في صدري، ولا هواء في العالم. اختفى ماتارا فجأة من جانبي. وتمايل العشب، وحفت الشجيرة بعد ذلك. ورفعت رأسها.

رأيتها! المؤاسية في ليالي السهر، والأيام المُرهِقة، رفيقة سنوات القلق! رأيتها! نَظرت إلى المكان الذي أجتُم فيه. إنها هناك كما كنت أراها منذ سنوات؛ الرحالة المخلصة التي تقف إلى جانبي. نَظرت بعينين حزينتين وشفتها تبتسم، نظرت إلي... ابتسمت شفتها! ألم أقطع وعداً بأنها يجب أن لا تموت!

كانت بعيدة وشعرت بأنها قريبة. إذ داعبتني لمستها، وهمهم صوتها، همست فوقني، وحوالي: «من ستكون الرفيقة، من المؤاسية إن أنا مت؟» ثم رأيت أجمة مزهرة على يسارها تتحرك قليلاً... ماتارا أصبح مستعداً... وصحّت بصوت عالٍ: «ارجع!».

قفزت من مكانها، وسقط الصندوق، وإنهمر اللؤلؤ عند قدميها. والهولندي الضخم طافت عيناه المتوعدتان خلال أشعة الشمس الساكنة. وارتفعت البندقية إلى كتفي. كنت راکعاً وثابتاً، أكثر ثباتاً من الأشجار، والصخور، والجبال. لكن أمام فوهة البندقية الطويلة الثابتة تآرجحت الحقول، والبيوت، والأرض، والسماء جيئةً وذهاباً مثل ظلال في غابة في يوم عاصف. اندفع ماتارا من بين الشجيرات، وأمامه بتلات زهور ملتفة إلى أعلى كما لو أنها اندفعت بفعل عاصفة. وسمعتها تصرخ؛ رأيته وهي تقفز وتفتح ذراعيها أمام الرجل الأبيض. إنها امرأة من شعبي ومن سلالة نبيلة. إنها كذلك! ثم سمعتُ صرختها من الخوف والألم، وكل شيء ظل ساكناً! الحقول، والأرض، والسماء ظلت ساكنة، فيما وثب ماتارا نحوها وذراعاها مرفوعتان. سحبت زناد البندقية، ورأيت شرارة ولم أسمع شيئاً، إذ اندفع الدخان نحو وجهي، واستطعت أن أرى ماتارا بعد ذلك؛ انقلب على رأسه أولاً، ثم تمدد وذراعاها مبسوطتان عند قدميها. ها! طلقة قاتلة! شعرت بأشعة الشمس على ظهري أكثر برودة من ماء جارٍ. طلقة قاتلة! وذلك الاثنان يقفان بالقرب من الرجل الميت كأنهما مسحوران بسحر ما. صرختُ بها: «عِيشي وتذكري!» وتعثرت لبعض الوقت في ظلام بارد.

إلى جانبي ثمة صيحات قوية، وركضُ لكثير من الأقدام، ثم أحاط بي رجال غرباء، وصرخوا بكلمات لا معنى لها في وجهي؛ دفعوني، وسحبوني، وحملوني، ودعموني... وقفت أمام الرجل الهولندي الضخم الذي حدق بي بامعان كما لو أنه مجرد من العقل. إذ أراد أن يعرف، وتحدث بسرعة؛ عبر عن امتنانه، وعرض عليّ الطعام، والمأوى، والذهب، وسألني الكثير من الأسئلة. ضحكت، وقلت: «أنا مسافر كورينجي من براق ولا أعرف شيئاً عن الرجل الميت، إذ كنت ماراً بمحاذاة الطريق حين سمعت صوت العيار الناري، ورجالك الحمقى خرجوا مسرعين وحملوني إلى هنا». رفع ذراعيه مستغرباً، ولم يستطع تصديق ما حدث، ولم يستطع فهمه، وكان مرتبكاً! التفت ذراعاها حول رقبتة، ومن فوق كتفه حدقت بي بعينيها الواسعتين. ابتسمتُ ونظرت إليها، ابتسمتُ وانتظرتُ سماع نبرة صوتها. سألتها الرجل الأبيض فجأة: «هل تعرفيه؟» ثم أنصت، وحياتي كانت رهن أذني! نظرت إليّ طويلاً، نظرت إليّ بعينين ثابتتين، وقالت بصوت عالٍ: «لا! لم أره من قبل على الإطلاق!»... ماذا؟ على الإطلاق؟ هل نسيت فعلاً؟ هل هذا ممكن؟ نسيت تماماً، بعد كل تلك السنوات؛ سنوات الضياع، والصحة، والمتاعب، والكلمات العذبة! نسيتها تماماً! وخلصت نفسي من الأيدي التي أمسكت بي وذهبت بعيداً دون أن أقول كلمة واحدة... فلقد سمحوا لي بالذهاب.

كنت مرهقاً. هل نمت؟ لا أعرف. إلا أنني أتذكر أنني مشيت على طريق واسع تحت ضوء النجوم، وبدت لي تلك البلدة الغربية كبيرة جداً، وحقول الأرز شاسعة جداً، وحتى إنني حين أنظر حولي يصاب رأسي بالدوار خوفاً من المكان. ورأيت الغابة بعد ذلك. ولأن ضوء النجوم المبهج كان ثقيلاً عليّ، توقفت في الطريق ودخلت الغابة التي كانت كثيفة جداً وحزينة جداً.

انخفضت نبرة كارين أكثر فأكثر، كما لو أنه ذهب بعيداً عنا، حتى إن الكلمات الأخيرة بدت خافتة لكن مفهومة، كما لو صرخ في يوم هادئ من مسافة بعيدة جداً. لم يتحرك. وهدق بثبات إلى ما وراء رأس هوليس الساكن الذي يواجهه ولا يتحرك مثله تماماً. ثم استدار جانبياً، مع مرفقه على الطاولة وظلل عينيه براحة يده. كنت أراقب، متفاجئاً ومنفعلاً، أراقب ذلك الرجل، المخلص لرؤيا، والذي خانته حلمه، ورفضه وهمه، والذي جاء إلينا نحن الكفار طلباً للمساعدة في مواجهة فكرة. بدا الصمت عميقاً، لكن مليئاً بالأشباح الصامتة، وبأشياء كئيبة، مظلمة وخرساء، حتى ظهرت لي الدقة المتذبذبة الثابتة لكونوميترين السفينة الذي يدق بانتظام الثواني حسب توقيت غرينتش مثل حماية وعون في حضورهم غير المرئي. وكارين؛ يهدق بصلافة وينظر إلى جسمه الجامد. فكرت في ترحاله، وفي تلك الأوديسة الغامضة للثأر، وبكل الرجال الذين هاموا بين أوهام الإخلاص والخيانة، تلك الأوهام التي تمنح المتعة، والحزن، والألم، وتمنح السلام، تلك الأوهام المنيعه التي يمكن أن تُظهر الحياة والموت بمظهر هادئ، ومُلمه، ومعذب أو خسيس.

سمعنا همهمة؛ ذلك الصوت في الخارج الذي بدا كما لو أنه تدفق من عالم الأحلام إلى ضوء مصباح الحجر. ثم واصل كارين الحديث:

«عشت في الغابة.

لم تأت إلي مرة أخرى. أبداً! ولا لمرة واحدة! وعشت لوحدي. لقد نسيت. وهذا أفضل. لم أكن أريدها، ولم أكن أريد أي أحد. وجدت منزلاً مهجوراً في أرض قديمة خالية. لا يقترب منه أحد. إذ أسمع من مسافة بعيدة أصوات أناس يمشون بمحاذاة الطريق. أنام فيه، وأستريح، ولدي أرز بري، وماء من جدول ماء جارٍ، وسلام! كنت أجلس كل ليلة عند النار التي أشعلها بالقرب من الكوخ. ومرت الكثير من الليالي وأنا هناك.

ذات مساء، جلستُ بالقرب من النار وبعد أن تناولت الطعام نظرت إلى الأرض وبدأت أتذكر رحلاتي. ثم رفعت رأسي. لم أسمع أي صوت، ولا حفيف، ولا خطى أقدام، لكنني رفعت رأسي. ورأيت ثمة رجلاً قادماً نحوي عبر الأرض الخالية الصغيرة. انتظرت. اقترب دون تحية وجلس القرفصاء في داخل ضوء النار. وأدار وجهه إليّ بعد ذلك. إنه ماتارا. هدق بي بشراسة بعينه الكبيرتين الغائرتين. الليل كان بارداً، وخمد وهج النار فجأة، وهو يهدق بي. نهضت وذهبت بعيداً عنه، وتركته قرب نار بلا وهج.

مشيت طوال تلك الليلة، وطوال اليوم التالي، وفي المساء أشعلت ناراً كبيرة وجلست بقربها في انتظاره. لم يقترب من النار، لكنني سمعته يهمس، يهمس بين الأدغال هنا وهناك.

وفهمت ما يهمس به أخيراً، فلقد سمعت تلك الكلمات من قبل: «أنت صديقي، اقتل بطلقة قاتلة».

تحملت ذلك طويلاً قدر استطاعتي، ثم هربت مسرعاً، كما في تلك الليلة حين هربت من حصني وسبحت نحوكم. كنت أركض، أركض وأبكي مثل طفل تُرك لوحده وبعيداً جداً عن البيوت. وهو يركض إلى جانبي، دون أثر لقدميه، ويهمس، ويهمس، غير مرأي ومسموع. بحثت عن ناس، كنت أريد رجالاً يحيطون بي! رجالاً لا يموتون! ومرة أخرى بدأنا الترحال نحن الاثنين. إذ كنت أبحث عن الخطر، الأعداء، والموت. لذا قاتلت في حرب آجيه، وتساءل الرجال الشجعان عن بسالة الغريب (عن بسالتي). لكننا كنا اثنين؛ لأنه منع الكوارث، لماذا؟ كنت أريد السلام... لا الحياة. ولا أحد يمكنه رؤيته، ولم يعرف أحد عن أمره، ولم أتجرأ على قول شيء لأي أحد. كان يتركني أحياناً، لكن ليس لفترة طويلة، ثم يعود ويهمس إليّ أو يحدق بي. وقلبي يتمزق مع خوف غريب، غير أنه لم يمت. وفي ذلك الوقت التقيت بالرجل العجوز.

كلكم تعرفونه. الناس هنا يسمونه ساحري، وخادمي وحامل سيفي، لكنه بالنسبة لي الأب، والأم، والحامي، والملجأ والأمان. فحين التقيت به كان عائداً للتو من الحج وسمعته يرتل صلاة المغرب. لقد حج إلى المكان المقدس مع ابنه وزوجة ابنه وحفيده، وفي طريق عودتهم ماتوا في خدمة العلي؛ الرجل القوي، والأم الشابة والطفل الصغير، ماتوا جميعهم، والرجل العجوز وصل إلى بلاده وحيداً. إنه حاج ورع وهادئ، حكيم جداً ووحيد جداً. حكيت له كل شيء. وعشنا معاً لبعض الوقت. قال لي كلمات من الشفقة، والحكمة، والصلاة. وحرسني من شبح الميت. سألته عن السحر الذي يحميني، إلا أنه رفض الإجابة لفترة طويلة، لكن أخيراً ومع حسرة وابتسامة، أخبرني شيئاً واحداً عنه: لديه إمكانية أمر روح أقوى من الروح القلقة لصديقي الميت. وشعرت بالسلام مرة أخرى. لكنني أصبحت مضطرباً وعاشقاً للوغي والخطر. والرجل لم يتركني أبداً. سافرنا معاً، وكان مرحباً بنا من قبل الرجل العظيم، فحكمته وشجاعتي تُذكر بقوتكم أيها الرجال البيض، هل نسيتم! فلقد خدمنا سلطان سولا. وقاتلنا الإسبان. بيننا ثمة انتصارات، وأمنيات، وهزائم، وحزن، ودم، ودموع النساء... من أجل ماذا؟... لقد هربنا. وجمعنا متشردون مولعون بسباق الحرب وجئنا لنقاتل هنا مرة أخرى. والباقي تعرفونه. أنا حاكم مدينة محتلة، وعاشق للحرب والخطر، ومقاتل ومناظر. لكن الرجل العجوز قد مات وأنا أصبحت عبداً للميت مرة أخرى. هو ليس هنا الآن ليُبعد عني شبح العار، وليُخرس صوت الميت! لأن قوة سحره ماتت معه. وأنا أشعر بالخوف، وأسمع الهمس: «اقتل! اقتل! اقتل!»... ألم أقتل بما فيه الكفاية؟».

ظهر على وجهه لأول مرة في تلك الليلة تشنج من الجنون والغضب. ونظراته المترددة رشقت هنا وهناك مثل طيور مرعوبة في عاصفة رعديّة. ثم قفز من مكانه، وصرخ:

«أقسم بالأرواح التي تشرب الدم، والأرواح التي تبكي في الليل، وأرواح الغضب، وسوء الحظ، والموت، أقسم بأني سأطعن كل قلب ألتقي به في يوم من الأيام.. أنا...!».

بدا خطيراً إلى درجة أننا وقفنا نحن الثلاثة بسرعة، ودفع هوليس بظهر يده السلاح على الطاولة بحركة سريعة. أظن أننا قد صرخنا على بعضنا. واستمر الفزع لفترة قصيرة، وبعد برهة عاد هادئاً إلى كرسيه، مع ثلاثة رجال بيض يقفون حوله بطريقة مضحكة إلى حد ما. إذ شعرنا بالخجل قليلاً من أنفسنا. التقط جاكسون السلاح، وبعد نظرة مستفسرة منه إلي، أعطيته له. وأخذه بانحناءة إجلال من رأسه وعرزه في لفة سارونغه بعناية شديدة ليمنح سلاحه مكاناً آمناً. ونظر إلينا بعد ذلك مع ابتسامة بسيطة. خجلنا ولمنا بعضنا. جلس هوليس جانبياً على الطاولة وأمسك ذقنه بيده، وهو يراقبه متأملاً وهادئاً. ثم قلت:

«يجب أن تصمد مع شعبك. هم بحاجة إليك. وثمة نسيان في الحياة. حتى الميت يتوقف عن الكلام في وقت ما.».

«هل أنا امرأة لأنسى سنوات طويلة برمشة عين؟» صرخ باستياء شديد. أذهلني. كان ذلك رائعاً. فلقد بدت له حياته، التي عانى فيها وهم الحب والسلام، كما لو أنها حقيقية لا ريب فيها مثلما تبدو لأي قديس، أو فيلسوف أو أحمق من بيننا. دمدم هوليس:

«أنت لن تهدئه بتفاهاتك.».

ثم خاطبني كارين:

«أنت تعرفنا. لقد عشت معنا. لماذا؟ لا أستطيع أن أعرف، لكنك تفهم أحزاننا وأفكارنا. لقد عشت مع شعبي وتفهم رغباتنا ومخاوفنا. سأذهب معك. إلى بلدك، إلى شعبك. إلى شعبك الذين يعيشون في الكفر، من اليوم هو اليوم، والليل هو الليل بالنسبة لهم ولا أكثر من ذلك، ولأنك تفهم كل شيء تراه وتحتقر كل شيء آخر! خذني إلى بلدك، بلد الإلحاد، حيث الموتى لا يتكلمون، وحيث كل رجل حكيم ووحيد ويعيش في سلام!».

«وصف استهلالي» همهم هوليس مع ابتسامة مترددة.

نكس كارين رأسه.

«أستطيع أن أكبح وأقاتل وأكون مؤمناً» همس بنبرة حزينة. «لكني لا أستطيع العودة إلى من ينتظرنني على الشاطئ. لا! خذني معك... وإلا امنحني بعضاً من قوتك، من عدم إيمانك... من السحرا!...».

بدا منهكاً تماماً.

«نعم، خذه معك إلى الوطن» قال هوليس بصوت منخفض جداً كما لو يتجادل مع نفسه، «هناك طريقة واحدة. الأشباح هناك في المجتمع، يتحدثون بلطف إلى السيدات والسادة، لكنهم سيسخرون من بشر عار، مثل صديقنا الأمير... عار... مسلوخ! إني حزين من أجله. هذا مستحيل، بالطبع. نهاية كل هذا يجب أن تكون...» واصل الكلام وهو ينظر إلينا «نهاية كل هذا يجب أن تكون؛ أن في يوم من الأيام سوف يركض مثل المجنون بين رعيته المؤمنة ويرسل «الآباء» الكثير منهم قبل أن يحكموا عليه بالخيانة وضربه على رأسه».

أومات برأسي موافقاً. وفكرت بأكثر من احتمال قد يؤدي إلى نهاية كارين. فمن الواضح أن كارين مطارداً بأفكاره إلى جانب قدرة بشرية محدودة جداً، وضغوط كثيرة جداً وضرورية لجعله ينحرف عن شكل الجنون المميز لعرقه. لذا فإن الراحة التي حصل عليها خلال حياة الرجل العجوز جعلت العودة إلى العذاب أمر لا يطاق. فذلك العذاب كان واضحاً.

رفع رأسه فجأة. إذ تصورنا للحظة بأنه قد غفا.

«امنحني حمايتك، أو قوتك!» صاح. «سحر... سلاح!».

سقط ذقنه على صدره مرة أخرى. ونظرنا إليه ثم نظر أحدنا إلى الآخر مع ارتياح وخوف في عيوننا، كممثل رجال واجهوا بشكل غير متوقع مشهداً لكارثة غامضة. فلقد سلم نفسه لنا. وفرض علينا آثامه وعذاباته، وحياته وسلامه، ونحن لم نكن نعرف ماذا نفعل مع تلك المشكلة القادمة من الظلمة الخارجية. نحن الرجال البيض الثلاثة، ننظر إلى الملايوي ولا نستطيع إيجاد كلمة واحدة للاستخدام فيما بيننا، لو أن هناك بالفعل كلمة يمكنها حل تلك المشكلة. فكرنا ملياً وقلوبنا تنهار. وشعرنا كما لو أننا نحن الثلاثة قد استدعينا إلى بوابة جهنم للمحاكمة، وللبت في مصير تائه جاء فجأة من عالم الشمس والأوهام.

«يا إلهي، يبدو أن لديه فكرة عظيمة» همس هوليس بيأس. ثم ساد الصمت مرة أخرى، مع تلاطم الأمواج الضعيف، والتكات الثابتة للكرونومتر. وجاكسون مكتوف الذراعين، يسند كتفيه على حائط الحجر. ويحني رأسه تحت دعامة سطح المركب. ولحيته الشقراء تنتشر بشكل رائع على صدره، إذ يبدو ضخماً، وغير نافع، ولطيف. ثمّة شيء من الحداد في جو الحجر، وبدا الهواء فيها كما لو أنه قد عبّئ تدريجياً ببرودة قاسية من العجز، وغضب عديم الرحمة من الأنانية تجاه شكل غامض من ألم متطفل. ولم يكن لدينا أي فكرة عما يجب القيام به، لذا بدأنا نتضايق بمرارة من الرغبة الملحة للتخلص منه.

استغرق هوليس في التفكير، وهمهم فجأة مع ضحكة صغيرة «القوة... الحماية... السحر». انزلق من الطاولة وترك الحجر دون أن ينظر إلينا. وبدا الأمر مثل فرار حقير. وتبادلنا أنا وجاكسون نظرات غاضبة. وتمكنا من سماعه يفتش في مشكاة البريد في الحجر. هل ذهب الزميل إلى الفراش؟ تنهد كارين. إذ إن الأمر لم يكن محتملاً.

ثم ظهر هوليس من جديد، وهو يمسك صندوقاً صغيراً من الجلد بكلتا يديه. وضعه برفق على الطاولة مع لهات غريب، فلقد ظننا بأنه لم يستطع الكلام لبعض الوقت لسبب ما، أو إنه قلق من إخراج ذلك الصندوق لسبب أخلاقي. لكن الحكمة المتغترسة والسديدة لشبابه منحته الشجاعة اللازمة فوراً. وقال وهو يفتح قفل الصندوق بمفتاح صغير جداً: «انظروا بوقار قدر استطاعتكم، أيها الرفاق».

ربما كنا ننظر بدهشة وغباء، إلى أن نظر بسرعة فوق كتفيه وقال بغضب: «هذه ليست لعبة، سوف أقوم بشيء من أجله. انظروا بجدية. لنريكه!... ألا يمكنكما الكذب قليلاً!... من أجل صديق!».

بدا أن كارين لم يلاحظ أي شيء علينا، لكن حين فتح هوليس غطاء الصندوق حلقت عيناه إليه، وكذلك نحن. والساتان القرمزي الذي يبطن داخل الصندوق فرض بقعة عنيفة من اللون في أجواء الغرفة الكئيبة، كما أن النظر إليه منحنا شيئاً إيجابياً، فلقد كان رائعاً.

6

نظر هوليس مبتسماً إلى الصندوق.

هرب هوليس مسرعاً إلى الوطن عبر القناة مؤخراً. ظل هناك لسته أشهر، والتحق بنا من جديد في الوقت المناسب من أجل هذه الرحلة الأخيرة. لذا لم نر الصندوق من قبل قط. حامت يده فوقه، وتحدث إلينا بسخرية لكن وجهه أصبح جاداً كما لو أنه يلفظ تعويذة قوية على الأشياء في داخل الصندوق.

«كل واحد منا» قال مع فترات صمت أكثر هجومية من الكلمات بطريقة ما: «كل واحد منا، سوف يعترف بأنه مطارده بشبح امرأة، وكما يتضاءل الأصدقاء مع مرور الأيام... حسناً! أسألاً أنفسكما».

توقف قليلاً. كارين كان يحدق. ودوى صوت رعد شديد تحت سطح المركب. تحدث جاكسون بجدية:

«لا تكن ساخراً بغيضاً إلى هذا الحد».

«آه! أنتما لا تجيدان المكر» قال هوليس بحزن، «سوف تتعلمان... في هذه الأثناء هذا الملايوي صديقنا».

كرر لعدة مرات بتمعن «صديق... ملايوي. صديق... ملايوي» كما لو أنه يزن الكلمات ببعضها، ثم واصل الحديث بنشاط أكثر:

«رفيق طيب، ورجل مؤدب في سلوكه. ونحن لا نستطيع، إذا جاز التعبير، أن ندير ظهورنا لثقتنا وإيمانه بنا، فهؤلاء الملايويين يتأثرون بسهولة، كل أعصابهم تتأثر، كما تعرفان، لهذا...».

التفت إليّ بسرعة.

«أنت تعرفه جيداً» قال بنبرة عملية، «ألا تظن أنه متعصب، أعني صارماً جداً في إيمانه؟».

قلت متلعثماً في ذهول شديد: «لا أظن ذلك!».

«هذا بسبب شبيهه، الصورة المنقوشة» همهم هوليس بشكل مبهم. وتحول إلى الصندوق. أدخل أصبعه في الصندوق. وافترقت شفتا كارين وأشرقت عيناه. ثم نظرنا جميعاً في الصندوق.

في الصندوق كرتان من القطن، وحزمة من الإبر، وقطعة صغيرة من شريط حريري لونه أزرق غامق، وصورة كابين²⁷، استرق هوليس النظر إلى محتوياته قبل أن يضعها على سطح الطاولة، وصورة لفتاة، كان يمكنني رؤيتها. ومن بين الكثير من الأشياء الصغيرة المختلفة؛ باقة من الزهور، وقفاز أبيض صغير مع العديد من الأزرار، وحزمة صغيرة من الرسائل المربوطة بعناية. تعويذة الرجال البيض! سحر وطلاسم! السحر الذي يبقئهم

مستقيمين، أو يدفعهم للالتواء، ولديه القدرة على جعل رجل شاب يتنهد، وعجوز يبتسم. أشياء فعالة تحقق أحلاماً سعيدة، وتدبر أفكاراً تدعو للندم، وتلين القلوب القاسية، ويمكن أن تصلب قلباً ليناً إلى صلابة الفولاذ. إنها هدايا السماء، ومخلوقات الأرض...

فتش هوليس في الصندوق.

وبدا لي، أثناء تلك الفترة القصيرة من الانتظار، بأن حجرة المركب أصبحت تعج بتأثير غير مرئي وفعال مثل أنفاس رقيقة. وكما لو تم طرد كل الأشباح من الغرب غير المؤمن من قبل رجال يزعمون بأنهم حكماء ووحيدون ومسالمون، وظهرت كل أشباح العالم غير المؤمن المشردة بغتة حول جسم هوليس المنحني على الصندوق، وكل الأرواح المبعدة والساحرة لعاشقي النساء، وكل الأشباح الجميلة والناعمة للمثاليين، المعروفين، والمنسيين، المحبوبين، والملعونين، وكل الأشباح المَهْمَلة والمُوبخة لأصدقاء محترمين، ومحل ثقة، وسيئي السمعة، وخونة، وموتى متروكين على الطريق، كما لو أنهم جاؤوا جميعاً من مناطق وعرة من الأرض ليجتمعوا في حجرة المركب الكئيبة، كما لو أنها ملجأ، أو الملاذ

الوحيد في كل العالم غير المؤمن لعقيدة الثأر... استمر ذلك لثانية، ثم اختفى كل شيء. توجه نحونا هوليس بعد ذلك وحده مع شيء صغير يلمع بين أصابعه. بدا وكأنه عملة معدنية.

«آه، هذا هو» قال.

رفعها. إنها عملة من فئة ست بنسات؛ ست بنسات يوبيلية. عملة مُذهبة، وفيها ثقب ثقب بالقرب من الحافة. ثم نظر هوليس باتجاه كارين.

«سحر من أجل صديقنا» قال لنا. «العملة بحد ذاتها تمثل السلطة العظمى؛ المال، كما تعلمان، ومخيلته قد تضررت. إنه متشرد وفي، إلا إذا كان تزمته لا يخجل من التشبيه...».

لم نقل شيئاً. ولم نعد نعرف أنضحك أم نغضب، أم نهذاً. تقدم هوليس نحو كارين الذي وقف كما لو أنه مندهش، وأمسك بعد ذلك بالعملة وتحدث باللغة الملايوية: «هذه هي صورة الملكة العظيمة، ومن أقوى الأشياء التي يعرفها الرجال البيض» قال بجدية.

حجب كارين مقبض سلاحه دلالةً على الاحترام، وهدق بالرأس المتوج.

«المنبعة، الورعة» همهم كارين.

«إنها أكثر قوة من سليمان الحكيم الذي قاد الجن، كما تعلمان» قال هوليس بوقار. «سأقدم هذا لك.»

وضع العملة في راحة يده، ونظر إليها بتأمل، وتحدث إلينا باللغة الإنجليزية.

«هي تسيطر على الروح أيضاً، روح أمتها؛ شيطان متسلط، يقظ الضمير، عديم الضمير، لا يُقهر... ولقد فعل الكثير من الأعمال الخيرة، عن طريق الصدفة... الكثير من الأعمال الخيرة... ربما، ولم تظهر أي ضجة من أفضل الأشباح لمثل هذا الشيء الصغير كما أحدث العيار الناري لصديقنا. لا تنظرا بدهشة، أيها الصديقين، ساعداني في جعله يصدق كل شيء أقوله.»

«سوف يصدم شعبه» قلت بصوت خافت.

نظر هوليس بثبات إلى كارين، الذي كان تجسيدا لروح الانفعال الصامت. إذ وقف جامداً، ورأسه ملقى إلى الخلف، وعيناه تدوران على نحو جامح، وتلمعان، وفتحنا أنفه المتسعان ترتجفان.

«تخلص منه!» قال هوليس أخيراً، إنه صديق طيب. أريد أن أعطيه شيئاً سأفتقده حقاً.

أخرج الشريط من الصندوق، وابتسم له بسخرية، ثم قص بمقص قطعة من كف القفاز.
«سأصنع له شيئاً يشبه ملابس الفلاحين الإيطاليين، كما تعرفان».

رتق العملة في الجلد الرقيق، رتق الجلد على الشريط، وربط طرفيه معاً. فعل كل ذلك بسرعة. وكارين كان ينظر إلى أصابعه طوال الوقت.

«والآن!» قال، ثم تقدم نحو كارين. اقتربا من بعضهما وكل منهما نظر في عيني الآخر. عينا كارين تحدقان بنظرة يائسة، لكن هوليس بدا أكثر قتامة ونظر بتسلط وتجبر. كانا في مواجهة عنيفة معاً؛ أحدهما يقف بلا حراك ولونه برونزي، والآخر أبيض ساطع ويرفع ذراعيه، وعضلاته القوية تتحرك قليلاً تحت جلده الذي يلمع مثل الحرير. اقترب جاكسون منهما كممثل رجل اقترب من صديق في مكان ضيق. وقلت بانفعال، قاصداً هوليس:

«إنه رجل شاب لكنه حكيم، صدقه!».

حتى كارين رأسه، ورمى هوليس بخفة الشريط الأزرق الغامق عليه وعاد إلى الورا.

«انس، وكن في سلام!» صرخت.

بدا كارين كما لو أنه قد استيقظ من حلم.

قال: «ها!» وهز نفسه كما لو ألقى عن كاهله عبئاً ثقيلاً. ثم نظر حوله بثقة. سحب شخص ما على سطح المركب غطاء النافذة السقفية، وانساب الضوء إلى الحجرة. لقد حل الصباح.

«حان الوقت للذهاب إلى سطح المركب» قال جاكسون.

ارتدى هوليس معطفاً، وصعدنا إلى سطح المركب بقيادة كارين.

كانت الشمس قد ارتفعت خلف التلال، وظلالها الطويلة امتدت بعيداً حتى الخليج في ضوء لؤلئي. الهواء صافي، ونظيف وبارد. وأشارت إلى خط منحني من الرمال الصفراء.

«هو ليس هناك» قلت لكارين بحزم. «لم يعد ينتظرك بعد الآن. لقد رحل إلى الأبد».

اندفع شعاع من الأشعة الساخنة الساطعة إلى الخليج بين قمتي تلين، واندفعت المياه من جميع الجهات في بريق متألئ كما لو حدث ذلك بفعل السحر.

«لا! هو لا ينتظر هناك» قال كارين، بعد نظرة طويلة إلى الشاطئ. «لم أسمع» واصل كلامه ببطء «لا!».

ثم التفت إلينا.

«لقد رحل مرة أخرى، إلى الأبد!» صاح كارين.

وافقنا بحماس، وكررنا ما قاله، دون ندم. فإقناعه بقوة، واقتراح حماية مطلقة، هما الشيطان المهمان اللذان مثلاً نهاية كل المتاعب. لقد عملنا ما بوسعنا، وأمل أننا قد أكدنا إيماننا في قوة سحر هوليس مع تأثير كافٍ لوضع المسألة خلف ظلال الشك. إذ رنت أصواتنا حوله بمرح في جو ساكن، وفوق رأسه السماء صافية نقية، وغير ملوثة، وانعطفت زرققتها الناعمة من شاطئ إلى شاطئ وفوق الخليج، كما لو أنها تضم المياه، والأرض، والرجل في عناق نورها.

رُفعت المرساة، والأشعة ما تزال معلقة، ورأينا ستة قوارب كبيرة تكتسح الخليج ليسحبوا مركبنا. المجدفون في القارب الأول اصطف إلى جانب مركبنا رفعوا رؤوسهم ورأوا حاكمهم يقف بيننا. فتعالت همهمة خافتة من المفاجأة، ثم صيحات ترحيب.

تركنا، وبدا كما لو أنه يخطو مباشرة إلى داخل العظمة المهيبة لمنصته، ليغلف نفسه بوهم النجاح الذي لا مفر منه. وقف منتصباً للحظة؛ قدم واحدة على سلم المركب، ويد على مقبض سلاحه، في وضعية دفاع عن النفس، متحرراً من خوف الظلمة الخارجية، وأبقى رأسه مرفوعاً، ثم ألقى نظرة راثقة على وطء قدمه القاهر على الأرض. واستأنفت القوارب البعيدة صيحات الترحيب؛ صخب كبير جرى على المياه، ورددته التلال، وبدا كما لو أن ذلك قد أعاد إليه الكلمات المبتهلة بالعمر الطويل والانتصارات.

نزل إلى الكانو، وحالما اتخذ مكانه هتفنا له ثلاث هتافات، بدت خافتة ومنظمة بعد الضجة العنيفة لرعاياه المخلصين، لكن ذلك كان أقصى ما يمكننا فعله. وقف في القارب، ورفع كلتا ذراعيه وأشار إلى السحر الناجح. فهتفنا مرة أخرى، والملايويين في القارب يحدقون بحيرة وتأثر كبيرين. وتساءلت بماذا كانوا يفكرون... بماذا كان يفكر، بماذا يفكر القارئ؟.

تم سحبنا ببطء. ورأيناه ينزل إلى اليابسة وينظر إلينا من عند الشاطئ. اقترب شخص منه بتواضع غير مصطنع، لا يشبه على الإطلاق هيئة شبح متظلم. إذ كان بإمكاننا أن نرى رجالاً آخرين يركضون نحوه. وربما أخفق؟ على أي حال، حدثت ضجة كبيرة. وتشكلت مجموعة بالقرب منه بسرعة، ومشى على الرمال يتبعه موكب متنائم، وظل قريباً من المركب. إذ تمكنا من رؤية الشريط الأزرق على رقبتة ورقعة قماش بيضاء على صدره الأسمر بمناظيرنا. واستيقظ الخليج؛ تصاعدت أدخنة حرائق الصباح الباهتة بشكل لولبي أعلى من قمم النخيل، وتحرك الناس بين المنازل، وسرب من الجواميس يعدو بسرعة على نحو غير منظم عبر منحدر أخضر، والأجساد النحيلة للأولاد تلوح مهددة بالعصي وبدت سوداء وهي تقفز بين الحشائش الطويلة، وصُفّ ملون من النساء مع سيقان البامبو فوق رؤوسهن، يتمايلن خلال حدائق هزيلة من أشجار الفواكه. وكارين واقف في وسط رجاله ويلوح

بيده، ثم فصل نفسه عن المجموعة المنبهرة، ومشى وحيداً إلى حافة المياه ولوّح بيده مرة أخرى. خرج المركب الشراعي إلى البحر بين الأراضي الرأسية المنحدرة المحصورة في الخليج، وفي اللحظة نفسها خرج كارين من حياتنا إلى الأبد.

لكن ذكراه باقية. فبعد عدة سنوات التقيت جاكسون على الساحل. وبدا مهيباً أكثر من أي وقت سابق. إذ يعلو رأسه فوق مجاميع الناس؛ لحيته ذهبية، ووجهه أحمر، وعيناه زرقاوان - يرتدي قبعة رمادية عريضة الحافة ولا يرتدي قلادة أو صدريّة، وكان متحمساً، فلقد عاد للتو إلى الوطن، ونزل إلى اليابسة في ذلك اليوم! اجتماعنا سبب دوامة في تيار البشرية. والناس المتعجلون سيركضون نحونا، ويمشون حولنا، ثم يعودون لإلقاء نظرة على ذلك العملاق. حاولنا ضغط سبع سنوات من الحياة في صيحات، ثم هدأنا فجأة بعد ذلك، ومشينا بشكل رزين جنباً إلى جنب، وكل واحد منا يحكي أخبار البارحة إلى الآخر. حدق جاكسون حوله مثل رجل يبحث عن معالم مهمة في المكان، ثم توقف أمام شباك محل بلاند لبيع الأسلحة. فهو لديه شغف دائم بالأسلحة النارية، لذا توقف قليلاً وتأمل صف الأسلحة المتقنة الصنع والخطيرة الموضوعة في صف خلف ألواح زجاجية إطارها أسود. وقفت إلى جانبه. ثم قال على نحو مفاجئ:

«هل تذكر كارين؟».

اومات برأسي.

«رؤية كل هذه الأسلحة جعلني أفكر به» واصل كلامه ووجهه قريباً من الزجاج... واستطعت أن أرى رجلاً آخر؛ رجلاً قوياً ويمسك بلحيته، كان يحدق به باهتمام شديد من بين الأنابيب الداكنة والمصفولة التي قد يكون من شأنها معالجة الكثير من الأوهام. «نعم، جعلني أفكر به!» تابع جاكسون ببطء. «قرأت في الصحيفة هذا الصباح بأنهم يقاتلون هناك مرة أخرى. ومن المؤكد أنه معهم. وسيجعل القتال محتتماً مع الفرسان. حسناً، حظاً سعيداً له، ذلك الشيطان المسكين! كان مذهلاً للغاية».

واصلنا المشي.

«أتساءل فيما إذا كان السحر قد أدى مفعوله، هل تذكر سحر هوليس، بكل تأكيد. في حال عمل السحر... لن تُنفق الستة بنسات في مصلحة أفضل! الشيطان المسكين! أتساءل فيما إذا كان قد تحرر من صديقه. أمل ذلك... هل تعرف، أحياناً أفكر بأن...».

توقفت قليلاً ونظرت إليه.

«نعم... أعني إذا كان الأمر هكذا... إذا كان ذلك الشيء قد أدى مفعوله بالفعل... ما رأيك؟».

«صديقي العزيز» صحت، «كنت لفترة طويلة بعيداً عن الوطن. ما جدوى هذه الأسئلة! انظر فقط لكل هذا!».

بصيص رقيق من أشعة الشمس ومض من الغرب وخرج من بين صفين طويلين من الجدران، وتبعته الفوضى المتصدعة للسطوح، والمداخن المبنية فوقها، والأحرف الذهبية الممتدة على واجهات المنازل، واللمعة الكثيبة للنوافذ، ظهر كل ذلك مستسلماً وحزيناً تحت حلول الظلام. والشارع الطويل العميق مثل بئر والضيق مثل دهليز كان حافلاً بضجة مملّة ومتواصلة. امتلأت آذاننا بصوت جرجرة الأقدام المتهورّة والنابضة لوقع خطوات سريعة وبضجة تتبعها؛ ضجة سريعة، وخفيفة، ومتذبذبة مثل الأنفاس اللاهثة، أو مثل دقات القلوب والأصوات المتلهفة. وعيون لا تعد ولا تحصى تحقّق أمامها مباشرة، وأقدام تتحرك بسرعة، ووجوه بيضاء تتدفق وأذرع تهتز. وفي كل مكان، أشرطة هزيلة ممزقة تتصاعد في سماء بلون الدخان ملتفة حول السطوح العالية، ممتدة وساكنة مثل شريط ملون متسخ يطير فوق هزيمة الأوباش.

«ن-ع-م» قال جاكسون متأملاً.

دارت العجلات الكبيرة للعربات ببطء على طول حافة الرصيف، ووجه شاحب لشاب يتجول يغلب عليه الإرهاق إلى جانب عصاه وذيل معطفه يرفرف بلطف قرب كعبه. وانعطفت الأحصنة بحذر شديد إلى جانب الرصيف الزلق وحركت رؤوسها. ومرت شابتان تتحدثان بحيوية وعيونهما مشرقة. ورجل عجوز أنيق يتبختر ويمسد شاربه الأبيض، وصفّ من اللوحات الصفراء مع حروف زرقاء تقترب منا ببطء، إذ تُقذف من علو بلا هدف واحدة تلو الأخرى مثل حطام فاسد فوق نهر من القبعات.

«ن-ع-م» كرر جاكسون. وعيناه الزرقاوان الصافيتان تنظران بسخرية ومتعة وقسوة، مثل عيني صبي. وسلسلة خرقاء من باصات الأومني الحمراء، والصفراء والزرقاء تسير متمايلة، فظيعة ومبهرجة، وطفلان يرتديان ملابس رثة ركضا عبر الشارع، ومجموعة من الرجال القذرين مع مناديل حمراء حول أعناقهم يتمايلون بالقرب منا، ويتحاورون بكلمات بذينة، ورجل عجوز أشعث يبدو على وجهه الإرهاق يصرخ بشكل مروع في الوحل باسم صحيفة، بينما من بعيد، ومن بين رؤوس الخيول التي تتحرك بحيوية، واللمعة الباهتة لسروجها، وفوضى اللوحات البراقة وأسطح العربات، يمكننا رؤية شرطي يرتدي خوذة وبشرته داكنة، ويمد ذراعه بحزم نحو تقاطع الشوارع.

«نعم، أنا أراه» قال جاكسون على مهل. «إنه هناك²⁸، يلهث، ويركض، ويتجول، قوي وحي، وسوف يسحقك إن لم تنتبه، لكني سأذهل إن كان إلى الآن حقيقياً بالنسبة لي... مثل باقي الأشياء... لنقل؛ مثل قصة كارين».

أظن ذلك بلا ريب، لأن جاكسون كان بعيداً عن الوطن لوقت طويل جداً.

المصادر

Polish, Hybrid, and Otherwise. Exilic Discourse in Joseph Conrad and -
Witold Gombrowicz. By: George Z. Gasyna

Joseph Conrad and the Reader: Questioning Modern Theories of Narrative -
.and Readership

Joseph Conrad and the Anthropological Dilemma: "bewildered Traveller". -
By: John W. Griffith

الهوامش

[1←]

قارب التايمز: هو نوع من القوارب التجارية الشائعة على نهر التايمز في القرن التاسع عشر.
(المترجمة)

[2←]

الباسكيون: هم الشعوب الذين يعيشون في إقليم الباسك شمال إسبانيا على حدودها مع فرنسا.
(المترجمة)

[3←]

الهوسار: فرسان فوج السلاح الخفيف في الجيوش الأوروبية.
(المترجمة)

[4←]

غورال: ربما يكون لقب لجبلي من جبال الكاريبات. شخصية يانكو غورال عموماً قدم من خلالها كونراد مقارنة أنثروبولوجية فيها الكثير من تجربته الشخصية، «الغريب» كان هو، كما أشارت الكثير من المصادر لهذا. قائمة ببعض المصادر في نهاية الكتاب.
(المترجمة)

[5←]

Conway boy: يطلق هذا الاسم على البحارة الذين تدربوا في السفينة الحربية البريطانية كونوي، كانت هذه السفينة عبارة عن مدرسة تدريب بحرية تأسست في 1859، مرساها الأصلي في ميرسي بالقرب من ليقرپول. تحولت المدرسة الى مبنى بعد تحطمها عام 1953.
(المترجمة)

[6←]

هذه المجموعة التي وصفها كونراد هنا ظهرت في «قلب الظلام» وأفرادها في الأساس هم أصدقاء كونراد: ج. أف. دبليو. هوب (المدير)، دبليو. بي. كين (المحاسب). تي. ل. ميرس (المحامي). وچارلس مارلو شخصية ابتكرها المؤلف.
(المترجمة)

[7←]

في نهاية القرن الخامس عشر كانت كسارة الجوز على شكل منحوتات خشبية لجنود، ملوك، وفرسان. (المترجمة)

[8←]

الصابورة: ثقل التوازن، لتحسين ثبات السفينة وتوازنها وقدرتها على مواجهة الظروف الصعبة.

[9←]

Ahoy!: صيحة البحارة. (المترجمة)

[10←]

استخدم الكاتب By Jove! باللاتينية Iupiter أو Jove هو ملك الآلهة الرومانية وإله السماء والبرق في الميثولوجيا الرومانية. في بريطانيا القرن الثامن عشر والتاسع عشر كان قول «By God» جريمة اجتماعية كبرى، بدلاً من ذلك كانوا يستخدمون «By Jove» تعبيراً عن المفاجأة أو الاستغراب من حدوث شيء ما. (المترجمة)

[11←]

جوردي (Geordie): هو لقب ولهجة سكان تينسايد، منطقة في شمال شرق إنكلترا. واللهجة الجورديية هي تطوير للغة التي كان يتحدث بها السكان الأنغلو ساكسونيون. ربما قصد المؤلف أن القبطان كما لو كان يتحدث بهذه اللهجة لارتبأكه. (المترجمة)

[12←]

Land's End: أرض رأسية ومكان سياحي في غرب كورنوال إنكلترا. (المترجمة)

[13←]

Foreland: أقصى شرق جزيرة وايت. (المترجمة)

[14←]

باب جاوا أو رأس جاوا (Java Head) هي المنطقة الواقعة عند رأس اندونيسيا غرب جزيرة جاوا على مضيق سوندا. (المترجمة)

[15←]

أيريبوس (Erebus): يمثل أيريبوس في الميثولوجيا الإغريقية ظلام العالم السفلي.
(المترجمة)

[16←]

نمسيس (Nemesis): إلهة حارسة لمصير الأشياء، وحامية للآلهة من الرذائل. (المترجمة)

[17←]

الشعب البكينيزي (The Buginese): هم جماعة عرقية، الأكثر عدداً من ثلاث مجموعات عرقية ولغوية في جنوب سولاويزي، في المقاطعة الجنوبية الغربية لسولاويزي، ثالث أكبر جزيرة في إندونيسيا. (المترجمة)

[18←]

السارونغ (sarong): «صارون» بالعربية. هو زي يرتديه الرجال والنساء في جنوب آسيا، عبارة عن قطعة قماش عريضة وطويلة تلف عادة حول الخصر. (المترجمة)

[19←]

الاستروفية (Strophe): مصطلح شعري يشار به إلى جزء من قصيدة الكور اليونانية أو مقطع واحد منها. (المترجمة)

[20←]

السيرانغ (serang): اسم يطلق على ربان أو عريف الملاحين لبحار هندي أو طاقم في شرق الهند. (المترجمة)

[21←]

الراجا (Rajah): ملك أو أمير هندي. (المترجمة)

[22←]

الحرارة البيضاء (white heat): درجة حرارة المعادن مثل الحديد والنحاس وهي بين 1500 و1600 درجة مئوية. (المترجمة)

[23←]

في المسيحية، «الظلام الخارجي» أو «الظلمة الخارجية» هو مكان ذكر في إنجيل متي لثلاث مرات (8:12، 22:13، 25:30)، حيث يبعد الإنسان عن رحمة الله، ويُعتقد أنه الجحيم. (المترجمة)

[24←]

واجو (Wajo): نظام ملكية قديم في أندونيسيا تأسس عام 1450 في بوغيس جنوب جزيرة سولاويزي (المترجمة)

[25←]

براو (Prau): مركب شراعي سريع يستخدم على نطاق واسع في المياه الملايوية. البراو ضيق وطويل مزود بشراعين في المقدمة والمؤخر. كان مشهوراً في وقت ما مع القراصنة الملايويين. (المترجمة)

[26←]

الباجو (Bajau): يشير الاسم إلى عدد من المجاميع العرقية الأسترونيزية من المناطق المجاورة للبحر في جنوب شرق آسيا. (المترجمة)

[27←]

ظهرت أول بطاقة كابين أو بطاقة الخزانة في ستينيات القرن التاسع عشر، تشبه بطاقة زيارة (cartes-de-visite) لكن بحجم أكبر، وقياسها 4x6 بوصة، سميت بهذا الاسم لأن حجمها مناسب لعرضه في الخزانة ذات الواجهة الزجاجية. (المترجمة)

[28←]

شبح صديق كارين (المترجمة)

Cover	.1
cover1.html	.2
الحياة حلمٌ وخوف	.3
أيمي فوستر	.4
شباب	.5
ذكرى كارين	.6
المصادر	.7
الهوامش	.8
الغلاف الحياة حلمٌ وخوف أيمي فوستر شباب ذكرى كارين المصادر الهوامش	.9

